

١٩١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قيادة

الإمام الصادق عليه السلام



خامنه‌ای، علی، رهبر جمهوری اسلامی ایران
قیادة الامام الصادق (ع) // علی خامنه‌ای، مترجم محمد علی آذر شب - طهران: الهدی،
۱۳۸۲.

ISBN: 964-8121-17-6

۱۰۴ ص.

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیبا.
۱. جعفرین محمد (ع)، امام ششم، ۸۰ الی ۱۴۸ ق.
الف. آذر شب، محمد علی، مترجم. ب. عنوان.
۹ ق ۲ خ / BP ۴۵
۱۳۸۲.

مؤسسة الهدی للنشر و التوزيع

ص. ب: ۲۳۶۳ - ۱۴۱۵۵

تلفون: ۶۴۰۶۲۶۱ فاکس: ۶۴۰۶۲۴۰



الكتاب: قيادة الإمام الصادق (ع)

المؤلف: آية الله السيد علي الخامنئي

المترجم: الدكتور محمد علي آذر شب

الناشر: مؤسسة الهدى للنشر و التوزيع

عدد النسخ: ۲۰۰۰

سنة الطبع: الطبعة الثالث ۱۴۲۴ هـ ق

السعر: ۵۵۰ تومان

ISBN: 964-8121-17-6

حقوق الطبع محفوظة

الفهرس

٧	مقدمة المترجم.....
١١	المدخل: نظرات ثلاثة.....

الفصل الاول

٢١	المسيرة العامة لحياة الأئمة المعصومين.....
٢٧	المرحلة الاولى.....
٢٨	المرحلة الثانية.....
٢٩	المرحلة الثالثة.....
٣٠	المرحلة الرابعة.....

الفصل الثاني

٣٩	حياة الامام الباقر عليه السلام استمرار منطقي لحياة الامام السجاد عليه السلام.....
----	---

الفصل الثالث

٦٥	المعالم البارزة في حياة الامام الصادق عليه السلام
٦٧	١- تبيين مسألة الامامة والدعوة اليها
	٢- بيان الاحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليه السلام
٨٢	عن رسول الله ﷺ
٨٨	٣- إقامة تنظيم سري سياسي- ايدولوجي
٩٧	مستودع السر
١٠٠	الباب والوكيل

مقدمة المترجم

لهذه المحاضرة قصّة ..

والقصّة تبين مشهداً من مشاهد الساحة الايرانية قبل انتصار الثورة الاسلامية بكل ما كان فيها من نشاط اسلامي، ومن تحديات وعقبات. في شهر شوال سنة ١٣٥٣ هـ - ش (١٣٩٤ هـ ق) دقّ جرس الهاتف في منزل الاستاذ المحاضر بمدينة مشهد. كان على الخط الاستاذ الشهيد الدكتور محمد مفتاح من طهران. بعد تبادل التحايا طلب الشيخ مفتاح (رضوان الله تعالى عليه) من صاحب المحاضرة أن يقدم الى طهران في يوم ٢٥ شوال (يوم وفاة الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) ليلقي محاضرة عن الامام الصادق. كانت ظروف صاحب المحاضرة صعبة آنذاك، بسبب زحمة الاعمال والدروس وكثرة المراجعات من جميع أرجاء ايران. كان يلقي المحاضرات في مسجد «الامام الحسن» ثم في «مسجد الكرامة» في مشهد الواقعة شرق ايران، ينتقل منها الى غرب ايران ليحاضر في همدان وكرمانشاه. وفي مشهد

واسعة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وربما عنت له نظرات جديدة، أو تغير رأيه في مسألة معينة من المسائل المطروحة في المحاضرة، وكم كنا نود أن نرى رأيه فيها لنحصل على آخر نظراته قبل أن تقدم على نقلها إلى اللغة العربية، ولكن عظم المسؤوليات وزحمة الاعمال وتراكمها حال دون ذلك، لذلك تقدمنا إلى القارئ الكريم كما هي، ففيها من الجديد الشيء الكثير، وفيها من تراثيات الفكر الاسلامي المطروح في ايران قبل انتصار الاسلام ما يهم كل متتبع.

ويلاحظ في المحاضرة ان السيد الاستاذ يواجه تيارين طالما واجههما في محاضراته ودروسه وهما: التيار اليساري المتحامل على الاسلام وعلى رموز الاسلام، والذي يصف رجال الاسلام بأنهم لم يتصدوا للدفاع عن المحرومين والمظلومين بل كانوا سنداً للظالمين والمترفين!! والتيار المهزوم القاعد الذي يحاول أن يجد في حياة أئمة الاسلام ما يبرر قعوده وسكوته، وهذان التياران كان لهما ثقلهما في الساحة الايرانية قبل تنامي الثورة الاسلامية، وكانا يشكلان عقبة أمام العاملين نحو دفع المجتمع على المسيرة الاسلامية.

الدكتور محمد علي آذرشب

المدخل

نظرات ثلاثة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»^(١)
«وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين»^(٢)
«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن اهتدى بهداه».

ثمة نظرتان خاطئتان بشأن الامام الصادق عليه السلام، ناشتتان عن لونين من التفكير؛ ومن الغرب أنهما على اختلافهما تتقاربان في الشكل والمحتوى والمنشأ، بل يمكن القول ان النظرتين تشتركان في بعض المحاور اشتراكاً تاماً: النظرة الاولى: نظرة مدافعة يديها أولئك الذين يخالون أنهم من أتباع

١ - الاحزاب: ٢٣.

٢ - الانبياء: ٧٣.

الامام ومواليه.. إنها نظرة شيعة الامام الصادق (عليه السلام) بالقول، لا بالعمل،
وتتلخص بما يلي:

إن الامام الصادق (عليه السلام) توفرت له ظروف لم تتوفر لامام من قبله ولا من بعده، استطاع أن يستغلها لنشر أحكام الدين، وأن سفتح أبواب مجلسه لطلاب العلم. جلس في بيته، وفتح صدره للمراجعين وتصدى للتدريس ونشر المعارف، وارتوى كل من قصده من طلاب العلم وناشدي الحقيقة. اشترك في مجلس درسه أربعة آلاف تلميذ، وعن طريق هؤلاء التلاميذ انتشرت علوم الامام الصادق، منها العلوم الدينية: كالفقه والحديث والتفسير، ومنها العلوم الانسانية: كالتاريخ والاخلاق وعلم الاجتماع.

وتصدى الامام لمناقشة المتتبعين الى الافكار الدخيلة، والرد على الزنادقة والماديين والملحددين، مباشرة أو عن طريق تلاميذه، وقارع أصحاب النحل المنحرفة بقوة. ولكل مجال من مجالات الدين، رعى كوكبة من الطلبة والمتخصصين.

ويقول أصحاب هذه النظرة أيضاً: إن الامام وحرصاً على استمرار هذا المشروع العلمي، اضطر الى عدم التدخل في السياسة، فلم يقدم على أي عمل سياسي، بل وأكثر من ذلك فانه سلك طريقاً يتماشى مع سياسة خلفاء زمانه لاسترضائهم ولاستبعاد أية شبهة يمكن أن تحوم حول نشاطه. لذلك لم يجابههم ومنع أيضاً أن يجابههم أحد. وقد تستلزم الظروف أن يذهب اليهم وينال جائزتهم وحظوتهم، وإن حدث أن أساء الحاكم به الظن نتيجة حدوث حركة ثورية أو تهمة لفقها نمام يتجه الامام (عليه السلام) الى استمالة الحاكم

ومجاملته.

ويورد اصحاب هذه النظرة شواهد تاريخية، من ذلك رواية ربيع الحاجب وامثالها التي تصوّر الامام في مجلس المنصور وهو يبدي الاعتراف بالتقصير وعلان الندم، وتنقل عن الامام عبارات مدح وثناء يبديها تجاه الخليفة المنصور مما لا يشك الانسان في كذب صدورها عن الامام الصادق عليه السلام تجاه طاغية كالمَنصور. هذه العبارات تصور المنصور بانه كيوسف وسليمان وايوب وتطلب منه أن يصبر على ما يرى من اساءات الامام او اساءات بني الحسن: «إن سليمان أُعطي فشكر، وإن ايوب أُبتلي فصبر، وإن يوسف ظَلِمَ فغفر، وأنت من ذلك السنخ...»^(١).

هذه نظرة تصور الامام عالماً، باحثاً، واستاذاً كبيراً انتهل من بحر علمه ابو حنيفة ومالك و... لكنه كان بعيداً كل البعد عن كل مقاومة لعدوان السلطة على الدين وعن كل ما تتطلبه مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر امام السلطان الجائر... كان بعيداً كل البعد عن الثوار من امثال: زيد بن علي ومحمد بن عبدالله والحسين بن علي شهيد فخر، بل عن الجنود المقاتلين مع هؤلاء الثوار، ولم يكن يبدي أي رد فعل تجاه ما يحل بالمجتمع الاسلامي ولا يكثر بما كان يكتنزه المنصور من أموال طائلة، ولا بما كان يعاني منه

١ - هذا المضمون نقل في ثمانى عبارات اخرى، دون ذكر السند اصلاً، وثمة رواية أخرى فيها سلسلة رواة غير ان الراوي الاصلي غير معلوم لانه لا يوجد بين الرواة من كان حاضراً في مجلس المنصور. وتوجد رواية واحدة فقط ينقلها الراوي عن الامام الصادق عليه السلام مباشرة بسند غير موثوق به. (راجع: بحار الانوار: ٤٧: ١٨٢، ح ٢٨ باب ٦، وقاموس الرجال ٩: ٥٠٩).

ابناء رسول الله في جبال طبرستان ومازندران وفي رساتيق العراق وايران من جوع بحيث لا يجدون ما يسد رمقهم، ولا ما يسترهم إذا ارادوا الصلاة جماعة!! ولا يهتم بما كان يتعرض له أتباعه من قتل وتعذيب وتشريد وهم صفر اليدين من كل متاع يتنعم به الافراد العاديون من ابناء المجتمع آنذاك!! في ظن اصحاب هذه النظرة أن الامام الصادق لم يبد أية حساسية تجاه هذا الوضع، بل كان قانعاً بأن يأتيه من مثل ابن ابي العوجاء، فيقارعه بالحجج والبراهين ويغلبه، ويخرج من بيته مهزوما... دون أن يؤمن طبعاً. هذه هي صورة الامام الصادق كما يرسمها اصحاب النظرة الاولى.

النظرة الثانية: يحملها اولئك الذين لا يعترفون بامامة الصادق، وهي نظرة متحاملة على الامام ترى انه لئلا، وقف تجاه ما كان يحيق بالمجتمع من ظلم موقف عدم اكتراث. فالمجتمع في زمانه كان يضج بالمظالم التطبيقية والطغيان السياسي والسيطرة المقيتة على أموال الناس^(١) وانفسهم وأعراضهم، واكثر من ذلك على عقولهم ونفوسهم وتفكيرهم ومشاعرهم. حتى لم تعد الامة تتمتع بابتسط الحقوق الانسانية، بما في ذلك القدرة على الانتخاب، مقابل هذا كان الطواغيت يتلاعبون بمقدرات الناس كيف ما شاءوا، وبينون القصور الفارهة مثل قصر الحمراء جوار آلاف الخرائب التي يعيش فيها البؤساء من عامة الشعب... في مثل هذا المجتمع المليء بألوان التعسف والاضطهاد يتجه الصادق الى البحث والدراسة وتربية الطلبة،

١ - حين مات المنصور كان في خزائنه من الاموال النقدية ستمائة مليون درهم واربعة

عشر مليون دينار (عصر الازدهار ص ٦٠ - ٧٠).

ويصبّ اهتمامه على 'تخريج الفقهاء والمتكلمين...!!

إن كلا النظرتين مجحفتان، لا تقومان على أساس ولا تستندان الى دليل واقعي. غير أن النظرة الاولى اشد إجحافاً وأكثر ظلماً للامام الصادق عليه السلام لانها صادرة عن لسان من يدعي أنه من شيعته واتباعه. لا أريد أن أنهج هنا اسلوب البحث العلمي المتداول في الدراسات بعرض جميع النصوص الواردة عن حياة الامام الصادق عليه السلام واقارن بينها من حيث المتن والسند لآخرج بنتيجة، فذلك له مجاله في مجالس البحث العلمي.

اريد ما أن اطرح نظرة ثالثة مقابل تلك النظرتين.. واقرن هذه النظرة بأدلة مستقاة من مصادر موجودة بين ايديكم، كي تستطيعوا - مثل حَكَم محايّد - أن تتطلعوا من خلالها الى الوجه الحقيقي للامام عليه السلام. وقبل أن ادخل في صميم البحث يلزمي أن أشير الى أن كلا النظرتين لا تقومان على أساس صحيح موثوق به.

فكما ذكرت أن النظرة الاولى تستند الى عدد من الروايات (اوضحت وضع اسنادها في الهامش). وهذه الروايات تنسجم طبعاً مع طالبي الراحة ومحبي العافية، فيتذرعون بها باعتبارها حجة قاطعة. انها كافية لان تكون مبرراً للانتهازيين من ذوي النفوس الضعيفة المهزوزة.

فهذه الروايات تصور الامام بانه راح يتملق للمنصور لحفظ حياته، مع أنه كان قادراً أن يحتوي الموقف بأسلوب حكيم. واذا كان ذلك شأن القدوة فما بالك بالمقتدي؟

نعتقد أن نصّ هذه الروايات كاف لاثبات زيفها. فالامام كان قادراً على دفع شرّ المنصور عنه بطرق أخرى كما حدث في مواقف عديدة تنقلها روايات موثوقة، فلا دليل إذن على أن يعتمد الامام الى هذا الملق الزائف والثناء الكاذب ليضفي على المنصور خصالاً ليست فيه ومكانة لا يستحقها. فكأن الامامة ارفع من ذلك بكثير دون شك. وأسمى من أن تتلوث بمثل هذه المواقف المنحطة.

ومن حيث السند فان تحري الدقة في الرواة يكشف لنا عن أشياء كثيرة، ففي عدد من هذه الروايات نرى الاسناد ينتهي بالربيع الحاجب. والربيع حاجب المنصور! وما أعدله من راو؟! ويظهر من المصادر أن الربيع كان أقرب الناس الى المنصور، وأكثرهم زلفة لديه. استوزره المنصور سنة ١٥٣ هـ (٥ سنوات بعد وفاة الامام الصادق عليه السلام)، أي نال رفعة في المقام... (ولعله نال هذا الترفيع ثمنا لما نسب له للصديق عليه السلام من أكاذيب).

مثل هذا الشخص الذي ثبت اخلاصه ووفاءه لجهاز الخلافة^(١) لا يستبعد منه أن يختلق الاكاذيب، فينسب كلام الملق الى الامام الصادق أو

١ - هو ثاني وآخر وزراء المنصور، كان رجلاً ذا دهاء وتدير وله هبة وفصاحة... بقي في منصب الوزارة حتى آخر حياة المنصور (سنة ١٥٨ هـ)، ويكفيه دليلاً على وفائه للمنصور ولبنى العباس أنه أنفذ الخلافة العباسية من انفجار كاد يقضي عليها اثناء احتدام الخلاف بين مدّعي وراثة المنصور.

فقد زوّر وصيّة على لسان المنصور في آخر حياته تأمر جميع حكام الولايات بالبيعة للمهدي ابن المنصور، فما كان من طلاب الخلافة الا الاستسلام. (راجع: عصر الازدهار ص ٥٩ - ٧٠).

يغير كلاماً حاداً قاله الامام الى كلام تضرع والتماس. هذا ليس بغريب على هذا الحاجب، لكن الغريب أن يصدق عاقل قول أحد بطانة الخليفة بشأن عدو الخليفة، ومقولة تشيع هذا المفترى، وهي مقولة تشكل جزءاً من المؤامرة الدنيئة.

والنظرة الثانية ايضاً واهية بنفس الدرجة وغير علمية. انها تشبه أحكام المستشرقين المنطلقة عن غرض أو جهل، ومن روح مادية محضة لا تنسجم اطلاقاً مع طبيعة الاحداث الاسلامية، ولقد شاهدنا تلك الاحكام الفجة التافهة التي تصدر عن بعض المستشرقين تجاه الاسلام وأئمة اهل البيت (عليهم السلام) كقول احدهم ^(١) عن الامام الحسن المجتبي أنه باع الخلافة بالمال! وقضى عمره بين العطر والمرأة والترف! وقول مستشرق آخر ^(٢): إن الاسلام نقل المجتمع من مرحلة الرقبة الى مرحلة الاقطاع!!

والنظرة الثانية التي نتحدث عنها تشترك مع أقوال هؤلاء المستشرقين في السطحية والتسرّع والمنطلق المادي.

والطريف أن الوثائق التي يعتمد عليها أصحاب النظرة الثانية ليست سوى ما يلفقه أصحاب النظرة الاولى من الحكام!!

النظرة الثالثة: والآن نبدأ بالنظرة الثالثة بشأن الامام الصادق، وهي نظرة يمكن أن يستنبطها كل ثابت نظر بالرجوع الى المصادر والمراجع. وهذا الاستنباط لا يختص بحياة الامام الصادق وحده، بل يشمل كل أئمة اهل

١ - فيليب حتي، تاريخ العرب.

٢ - بطورشفسكي، الاسلام في ايران.

٢٠ قيادة الإمام الصادق (عليه السلام)

البيت، مع الفارق في خصائص عمل كل منهم حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان، وهذا الاختلاف في الخصائص لا يتنافى مع وحدة روح العمل المشترك وحقيقته ومع وحدة الهدف والمسير.



الفصل الاول

المسيرة العامة لحياة الأئمة المعصومين عليه السلام

.

.

من أجل أن نفهم طبيعة المسيرة العامة لحياة الأئمة^(١)، علينا أولاً أن نتبين فلسفة الإمامة. التيار الذي عرف في مدرسة اهل البيت باسم الامامة والذي تتكون عناصره الاصلية من احد عشر شخصاً توالوا خلال قرنين ونصف القرن تقريباً، إنما هو في الواقع امتداد للنبوة.

فالنبي يبعثه الله سبحانه بمنهج جديد للحياة وبعقيدة جديدة، وبم شروع جديد للعلاقات البشرية، وبرسالة الى الانسانية، ويطوي حياته في جهاد مستمر، وجهد متواصل، ليؤدي مهمة الرسالة الملقاة على عاتقه قدر ما يسمح له عمره المحدود.

وعملية الدعوة يجب أن تستمر بعده كي تبلغ الرسالة أعلى الدرجات المتوخاة في تحقيق الاهداف، ويجب أن يحمل أعباء المواصله من هو أقرب الناس إلى صاحب الرسالة في جميع الابعاد كي يبلغ بالامانة الى محطة آمنة وقاعدة رصينة ثابتة مستمرة.

١ - من وفاة رسول الله ﷺ حتى وفاة الامام الحسن العسكري عليه السلام.

هؤلاء هم الائمة واوصياء النبي، وكل الائمة العظام واصحاب الرسالات كان لهم اوصياء وخلفاء. ومن أجل أن نعرف مهمة الامام، لا بد أن نعرف مهمة النبي، والمهمة يبينها القرآن الكريم إذ يقول: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»^(١).

هذه إحدى الآيات التي تبين علة النبوة، وتبين من جهة أخرى مهمة الانبياء، فالانبياء ابتعثوا لبناء مجتمع جديد ولاقتلاع جذور الفساد، ولا إعلان ثورة على جاهلية زمانهم وقلب مجتمعاتهم، وعملية التغيير هذه يعبر عنها الإمام علي عليه السلام في مطلع استلام مهام حكومته بقوله: «...حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم...»^(٢).

انها عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الاجتماعي وتكريم الانسان، وتحريره، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والافراد، ورفض الاستغلال والاستبداد والاحتكار، وافساح المجال للطاقات والكفاءات الانسانية، وتشجيع التعلم والتعليم والفكر والتفكير.. انها عملية اقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سمو الانسان في جميع الابعاد الاساسية، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ.

هذه هي المهمة التي بعث الله الانبياء من أجلها، ونستنتج من ذلك أن

١ - الحديد: ٢٥.

٢ - نهج البلاغة خ ١٦، لما بويغ في المدينة، وفيها يخبر الناس بعلمه بعلمه بما تؤول اليه احوالهم.

الامامة، باعتبارها امتدادا لمهام النبوة، تتحمل نفس هذه الاعباء، لو أن رسول الله ﷺ عاش ٢٥٠ عاما، فماذا كان يفعل يا ترى؟ وكيف كان يتحرك على طريق الدعوة؟ نفس هذه العملية نهض بها الائمة. هدف الامامة هو نفسه هدف النبوة، والطريق هو الطريق، أي إيجاد مجتمع اسلامي عادل، والسعي لصيانة مسيرته الصحيحة

مقتضيات الزمان مختلفة طبعاً، وبنفس النسبة يختلف التكتيك والاسلوب، نفس النبي ﷺ كان يعمل في بداية الدعوة باسلوب يختلف عن اسلوبه حين قطع شوطاً من الطريق نحو تحقيق هدفه المنشود.

حين كانت الدعوة في بداية الطريق، وكانت محفوفة بألوان التهديدات والتحديات تطلّب الامر تدبيراً خاصاً لمواصلة حمل الرسالة، وحين ترسخت قواعد النظام الاسلامي وضرب الاسلام بجراحه في الجزيرة العربية اختلف التدبير والاسلوب... والثابت والباقي هو الهدف الاسمي الذي انزلت الرسالة من اجله.. وهو السعي لايجاد مجتمع يستطيع الانسان فيه أن يطوي مسيرته التكاملية في جميع الابعاد، وأن تتفجر فيه الطاقات الخيرة والقوى الكامنة الانسانية، ومن ثم صيانة هذا المجتمع ونظامه الاسلامي.

كان أئمة الشيعة يتجهون - كالنبي - نحو نفس هذا الهدف، نحو إقامة نظام عادل اسلامي بنفس الخصائص وعلى نفس المسير. وفي حالة قيام هذا النظام تتجه الجهود نحو صيانة مسيرته واستمرارها.

ما الذي تتطلبه إقامة نظام اجتماعي أو مواصلة مسيرة هذا النظام؟ تتطلب اولاً ايدولوجية موجهة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام وتصوغه

بصياغتها. ثم تحتاج ثانيا الى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو تحقيق الهدف. نعرف أن ايدولوجية الائمة هي الاسلام. والاسلام رسالة البشرية الخالدة... رسالة تحمل في مضمونها عناصر بقائها وخلودها^(١).

وبملاحظة هذه الامور، نستطيع بسهولة أن نفهم المنهج العام لائمة أهل البيت واوصياء النبي الاكرم ﷺ.

هذا المنهج ذو جانبين متلازمين: الاول يرتبط بالعقيدة، والثاني بتوفير القدرة التنفيذية والاجتماعية. ففي الجانب الأول تتجه جهودهم وهمهم الى نشر مفاهيم الرسالة وبلورتها وترسيخها، والكشف عن الانحرافات التي تصدر عن المغرضين والمنحرفين، وبيان الاطروحة الاسلامية لما يستجد من أمور، واحياء ما اندثر من معالم الرسالة بسبب اصطدامها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي على الاذهان العادية من كتاب الله العزيز وسنة نبيه.. فهمة الجانب الاول تتلخص إذن بصيانة الرسالة الاسلامية حيّة بقاء متحركة على مرّ الاجيال.

وفي الجانب الثاني، كانوا يسعون، وفقا لما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية والعالمية في المجتمع الاسلامي، الى إعداد المقدمات اللازمة

١ - من تلك الخصائص تسريع النظام وفق المتطلبات الاساسية الناجمة للانسان، والمرونة التي تسمح باستقطاب العناصر العلمية والمنطقية من كل مكان ومن كل نوع. (مع الاحتفاظ بالاتجاه المبدئي للرسالة وبشرط الانسجام مع نظرة الرسالة الى الكون والحياة).

لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع بأنفسهم بشكل عاجل، أو التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل.

هذا موجز هدف حياة الائمة الاطهار، وهذه هي الخطوط العامة لاهدافهم. من أجلها عاشوا، ومن أجلها استشهدوا.

وإذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الائمة لا يثبت ما ذهبنا اليه، فإن عقيدتنا في الائمة كافية لان تصوّر حياتهم بهذا المنظار لا غير، فما بالك إذا كان التاريخ يشهد بما يقنع كل باحث أن حياة ائمة آل البيت كانت في هذا الاتجاه.

مسيرة الامامة استمرت منذ رحلة رسول الله ﷺ في شهر صفر سنة ١١ هـ حتى وفاة الامام الحسن العسكري عليه السلام في ربيع الاول سنة ٢٦٠ هـ وخلال هذه السنين طوت المسيرة اربع مراحل كان للائمة في كل منها موقف متميز تجاه حكام المجتمع الاسلامي:

المرحلة الاولى: مرحلة السكوت، أو مرحلة التعاون مع الحاكم.

تميزت هذه المرحلة بأن المجتمع الاسلامي الوليد كان محفوفاً باخطار الاعداء الذين تربصوا بالاسلام من الخارج بعد أن أحسوا بخطر الرسالة عليهم، وكان هناك الاعداد الغفيرة من جماعات حديثة العهد بالاسلام لا تطيق أن ترى تشتتنا في المجتمع الاسلامي، وكل ثغرة في جسد الامة تشكل تهديداً لاساس المجتمع الاسلامي ووجوده.

ومن جانب آخر لم يكن منحني الانحراف قد ارتفع بحيث لم يعد قابلاً

مدة حكم معاوية، وخلال هذه المدة القصيرة توجهت الجهود البناء للتمهيد الى المرحلة التالية^(١).

المرحلة الرابعة:

هي التي نحتاج الى أن نقف عندها ولو قليلا، لانها هي التي تعيننا في دراسة حياة الامام الصادق عليه السلام. في هذه المرحلة التي استمرت قرنين، تواصلت مسيرة الامامة ضمن خطة بعيدة المدى لتغيير المجتمع وفق نظرة الاسلام في جميع المجالات بما في ذلك القيادة السياسية. كانت مفعمة بالانتصارات والانتكاسات، ومقرونة بنجاح باهر في مجال العمل الفكري والعقائدي، وممزجة بالوان الاساليب الرائعة في العمل التكتيكي المناسب، ومزدانة بأسمى وأروع مظاهر الاخلاص والتضحية والتفاني والعظمة الانسانية على الطراز الاسلامي.

هذه المرحلة بدأت من محرم سنة ٦١ هـ بعد استشهاد الامام الحسين بن علي عليه السلام وبدء امامة علي بن الحسين عليه السلام، وفي هذه المرحلة نشط الائمة - كما ذكرنا - في الحقل الايديولوجي ومكافحة الانحرافات والتحريفات التي خلفتها مراكز القدرة والاذهان الجاهلة، الى جانب العمل على المدى البعيد لاقامة حكم اسلامي ينتهج القرآن وسنة رسول الله ﷺ ويتمثل نموذج حكومة علي عليه السلام.

١ - سرحت بالتفصيل طبيعة هذه الفترة في محاضرات متعددة مستندا الى الوثائق التاريخية المتوفرة

واضح أن تنفيذ منهج ثوري أصيل عميق في مجتمع مرت عليه سنون من الانحراف الفكري والعملية يستدعي تكتيكا دقيقا وتخطيطا اساسيا. فالمجتمع الاسلامي آنذ قد مرّت عليه فترة حكومة معاوية بكل ما فيها من تخدير وتحريف وتزييف وابتعاد عن الروح الرسالية وحرمان من القيادة المبدئية، مما أدى الى تفاقم خطر الانحراف، حتى إنّ الامر آل الى مقتل ريحانة رسول الله ﷺ في كربلاء على مسمع ومرآى من هذا المجتمع المرعوب المشلول المهزوم أمام الارهاب الاموي.

لابدّ إذن من عمل كبير يعيد الى هذا المجتمع معنوياته المفقودة وشخصيته المسحوقة، انها لعملية تغيير كبرى يحتاجها هذا المجتمع كي يعود مرة أخرى مؤهلا لحمل الرسالة والنهوض بأعباء المسؤولية الثقيلة. لابد من ثورة كالتى اعلنها رسول الله في المجتمع الجاهلي ثم تولّى قيادة هذا المجتمع انطلاقاً من هذه الثورة.

ان اعادة الحياة الثورية وتجديدها عملية لا تقل صعوبة واهمية عن خلق الثورة وايجادها. عملية التجديد الثوري بحاجة الى ايمان عميق، وعزم راسخ، وعقل مدبر، وفكر يقظ وواع وفعال. فمن الذي يحمل عبء هذه المسؤولية؟!

تلك الفئة التي ما استطاعت أن تسير وراء الامام الحسن عليه السلام وما ارتفعت الى مستوى مناصرة الامام الحسين عليه السلام غير قادرة دون شك على عملية الاحياء هذه. والاعتماد على هذه الفئة ليس وراءه الا الفشل والخسران.

الحاكم، ولم يثن عزمهم حبّ السلامة وطلب العافية، بل ظلّوا ملبيين مقاومين يواصلون طريقهم بعزم وثبات.

هؤلاء لم ينصرفوا مع تيار المجتمع المنجّر كالرعاع وراء ارادة الحاكم الظالم، بل كان يقف الواحد منهم وهو يحيى بن أم الطويل في مسجد المدينة ويخاطب مدعي الولاء لأهل البيت، معلنا براءته منهم - كما مرّ - ويستشهد بما قاله إبراهيم عليه السلام واتباعه لمعارضيه زمانه: ﴿كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾^(١).

أراد ابن أم الطويل بتلاوته هذه الآية المباركة أمام مدّعي الولاء لأهل البيت عليه السلام أن يعلن الانفصال التام بين الجبهتين: جبهة الرساليين الملتزمين، وجبهة الخلود الى الارض والانحطاط إلى مستوى الاماني الرخيصة والانشدادات المادية التافهة. وهو انفصال يرافق كل الدعوات الالهية. والامام الصادق عليه السلام عبّر عن هذا الانفصال بين الجبهتين بقوله: «من لم يكن معنا كان علينا» أي من لم يكن في جبهة التوحيد كان في جبهة الطاغوت، وليس ثمة منطقة وسط بين الاثنين، ولا معنى للحياة في هذا الانتماء.

يحيى ابن أم الطويل هذا المسلم الحقيقي لأهل بيت رسول الله ﷺ بصرخته هذه يعلن الانفصال بين الذين يُرضون أنفسهم بالولاء العاطفي بينما هم قابعون في قوقعة مصالحهم الشخصية وغارقون في مستنقع ذنوبهم الضيقة، وبين أولئك الملتزمين فكرا وعملا بالامام.

هذا الانفصال يعني طبعا الترفع عن الانجرار وراء الاكثريّة الضالّة، ولا

يعني إهمال هؤلاء الضالين. من هنا اتجهت هذه المجموعة الصالحة إلى انتشار من له قابلية التحرر من الاصر والاغلال، وكثرت بالتدريج هذه الفئة المجاهدة الصابرة، وإلى هذا يشير الامام الصادق عليه السلام في قوله المذكور آنفا: «ثم إن الناس لحقوا وكثروا». وبذلك واصل الامام السجاد عليه السلام نشاطه. وكان هذا النشاط وبعض المواقف الأخرى التي سنذكرها مما أدى إلى استشهاد، واستشهاد بعض المقربين من أتباعه.

لم أر في حياة الامام السجاد عليه السلام ما يدل على مواجهة صريحة مع الجهاز الحاكم، والحكمة كانت تقتضي ذلك - كما ذكرنا - لأنه لو اتخذ مثل تلك المواقف التي نشاهدها في حياة الامام موسى بن جعفر عليه السلام وبعده من الأئمة تجاه حكام عصره لما استطاع أن يحقق ما حققه من دفع عملية التغيير دفعة استطاعت أن توفر للامام الباقر عليه السلام فرصة نشاط واسع، بل لصُنِّي هو والمجموعة الصالحة الملتفة حوله.

في مواقف نادرة نلمس من الامام عليه السلام رأيه الحقيقي من السلطة الحاكمة، ولكن ليس على مستوى المواجهة، بل على مستوى تسجيل موقف للتاريخ وليجعل المحيط القريب منه على قدر من العلم بعمله وحركته.

من تلك المواقف، رسالة تقريع صارخة وجهها الامام عليه السلام إلى رجل دين مرتبط بجهاز بني أمية هو «محمد بن شهاب الزهري». ونستطيع أن نفهم من الرسالة أن الامام يخاطب بها الأجيال على مرّ العصور، لا الزهري. لأن الزهري لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يتحرر من الاغلال التي تشده إلى موائد بني أمية وقصاعهم ولهوهم ومناصبهم وجاههم. ولم يستطع

بالفعل. لقد قضى عمره في خدمتهم، ودوّن كتابا، ووضع حديثا لسترلف اليهم^(١).

هذه الرسالة إذن وثيقة توضيح موقف الامام عليه السلام من أوضاع زمانه، ونصها موجود في كتاب «تحف العقول»^(٢).

وثمة وثيقة أخرى هي عبارة عن رسالة جوابية وجهها الامام عليه السلام الى عبد الملك بن مروان بعد ان ارسل الثاني رسالة يعيّر فيها الامام بزواجه من أمته المحررة، وقصد ابن مروان بذلك أن يبين للامام عليه السلام أنه محيط بكل ما يفعل حتى في اموره الشخصية، كما اراد أيضا أن يذكر الامام بقربته منه طمعا في استمالته.

والامام عليه السلام في رسالته الجوابية يوضح رأي الاسلام في هذه المسألة. ويؤكد أن امتياز الايمان والاسلام يلغي كل امتياز آخر. ثم بأسلوب كناية في غاية الروعة يشير الامام الى جاهلية آباء الخليفة، بل لعله يشير ايضا الى ما عليه الخليفة بالذات من جاهلية إذ يقول له: «فلا تؤم على امرئ مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية».

وحين قرأ الخليفة الاموي عبارة الامام عليه السلام أدرك معناها تماما، كما أدرك المعنى ابنه سليمان إذ قال له: «يا أمير المؤمنين كشدّ ما فخر عليك علي بن الحسين!!».

١ - راجع: أجوبة مسائل جارا لله، للسيد شرف الدين العاملي، ص ٥٩ و ٦٠، وكذلك:

دراسات في الكافي والصحيح، ص ٢٦١.

٢ - تحف العقول عن آل الرسول ٢٧٢ - ٢٧٧ ط: جماعة المدرسين - قم.

والخليفة بمنكته السياسية يرد على ابنه بما يوحي أنه أعرف من الابن بعاقبة الاصطدام مع إمام الشيعة فيقول له: «يا بني لا تقل ذلك فانها ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر وتغرف من بحر، إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتصنّع الناس»^(١).

ونموذج آخر من هذا المواقف ردّ الامام عليه السلام على طلب تقدم به عبد الملك بن مروان، كان عبد الملك قد بلغه أن سيف رسول الله ﷺ عند الامام. فبعث اليه من يطلب منه أن يهب السيف للخليفة، وهدده إن أبي بقطع عطاء بيت المال عنه. فكتب اليه الامام عليه السلام:

«اما بعد فان الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون، والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فانظر أيّنا اولى بهذه الآية»^(٢).

وفي غير هذه المواقف نرى الامام السجاد عليه السلام يتحرك بهدوء وباستتار في اتجاه تربية الافراد وصنع الشخصية الاسلامية وفق مدرسة أهل البيت ومحاربة الانحرافات و... وبذلك قطع في الواقع الخطوة الاساسية الاولى على طريق تحقيق هدف مدرسة أهل البيت المتمثل بإقامة المجتمع الإسلامي المستظل بحكومة اسلامية صالحة على نموذج حكومة رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام. وكما ذكرنا من قبل لم يسلم الامام عليه السلام واتباعه رغم هذا النهج - المسالم على الظاهر - من بطش الجهاز الاموي وتنكيله. فن أتباعه

١ - بحار الانوار ج ٤٦ ص ١٦٥، ط: بيروت، نقلاً عن الكافي ج ٥ ص ٣٤٤.

٢ - المصدر نفسه ص ٩٥.

من قتل بشكل فظيع، ومنهم من سجن، ومنهم تشرّد بعيدا عن الاهل والديار، والامام عليه السلام نفسه في مرة واحدة على الاقل سيق مقيدا بالاغلال في حالة مؤلمة من المدينة الى الشام، وتعرّض مرات لألوان الاذى والتعذيب. ثم دسّ الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك له السمّ واستشهد سنة ٩٥ هـ^(١).



١ - حياة الامام السجاد عليه السلام بابعادها الجهادية وما اكتنفها من احداث من اروع مقاطع حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام وتحتاج الى مقال مستقل.

الفصل الثاني

حياة الامام الباقر عليه السلام

استمرار منطقي لحياة الامام السجاد عليه السلام

الذي رسم في هاشمياته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله ﷺ. وتناقلت اللسان هذه الروائع الادبية وحفظتها الصدور. ومن جهة أخرى فان خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوع من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يقمع كل المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان الى أن الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا من أجلها مما أدى الى انشغالهم باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالاقتدار والجاه الجلال.

مهما يكن الامر فان حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة اهل البيت قد قلت في هذا العصر، واصبح الامام واتباعه في مأمن تقريباً من مطاردة الجهاز الحاكم.

وكان من الطبيعي أن يقطع الامام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة. وهذا ما يميّز حياة الامام الباقر عليه السلام.

ويمكن تلخيص حياة الامام الباقر خلال الاعوام التسعة عشر من امامته (٩٥ - ١١٤ هـ) بما يلي:

ابوه الامام السجاد عليه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمداً إماماً من بعده في حضور سائر ابنائه وعشيرته وسلّمه صندوقاً... تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم.. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله ﷺ وقال له:

«يا محمد هذا الصندوق فاذهب به الى بيتك. ثم قال: أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم، ولكنه كان مملوءاً علماً»^(١). لعل هذا الصندوق يرمز الى أن الامام السجاد سلم ابنه محمداً مسؤولية القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي).

ومع بدء الامام واتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت، يتسع نطاق انتشار الدعوة، ويتخذ ابعاداً جديدة تتعدى مناطقها السابقة في المدينة والكوفة، وتجدها شيوعاً في اصقاع بعيدة عن مركز السلطة الاموية، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية^(٢).

ان الواقع الفكري والاجتماعي المزري للناس كان يدفع الامام واتباعه نحو حركة دائبة لا تعرف الكلل والملل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الالهي إزاء هذا الانحراف.

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية، فغرقوا الى الازقان في مستنقع حياة آسنة موبوءة، حتى أضحوا كحكامهم لا يفقهون قولاً، ولا يصيخون لنصيحة سمعاً «إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا»^(٣). ومن جهة أخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تنحو

١ - بحار الانوار ٤٦: ٢٢٩ باب ٤. عن البصائر ٤: ٤٤.

٢ - من ذلك رواية ابي حمزة الثمالي يقول: «حتى أقبل أبو جعفر عليه السلام وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج» (بحار الانوار ٤٦: ٣٥٧ ط: بيروت). وانظر حديث أحد علماء خراسان مع عمر بن عبدالعزيز، وفيه أكثر من عبرة ودلالة. (بحار الانوار ٤٦: ٣٦٦).

٣ - من حديث الامام الباقر عليه السلام في ارشاد الشيخ المفيد ٢٨٤ وبحار الانوار ٤٦: ٢٨٨.

يؤيِّحه^(١).

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبيخ.. والامام ساكت في كل هذه المدّة ومطرق بوقار ينتظر فرصة الاجابة.. وحين افرغت البطانة ما في كنانتها وخيم السكوت على المجلس، نهض الامام وتوجه الى الحاضرين، وبعد أن حمد الله واثني عليه وصلى على نبيه، خاطب المجلس بعبارات قصيرة قارعة بين تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بين فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير اسلامية، واستخف بكل ما يحيط بالخليفة وحاشيته من هيل وهيلان ومكانة وسلطان، فقال:

«ايها الناس! اين تذهبون؟ واين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فان يكن لكم ملك معجل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك، لأنّ أهل العاقبة، يقول الله عزّ وجل: ﴿والعاقبة للمتقين﴾»^(٢).

عبارات تظلم وتهكم وتبشير وتهديد واثبات وردّ في جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على سامعها الايمان بحقانية قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيل سوى الامر بسجن الامام.

الامام في سجنه واصل عمله التغييري فأثر على من معه في السجن. بلغ الامر هشاماً فكبر عليه أن يرى حدوث مثل ذلك في عاصمته المحصنة من التأثير العلوي. فأمر أن يؤخذ السجين ومن معه على مركب سريع (البريد) ويُرسَل الى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته، وأمر أن لا يتعامل أحد في

١ - بحار الانوار ٤٦: ٢٦٣ رواية ٦٣ باب ٥.

٢ - بحار الانوار ٤٦: ٢٦٤ الباب ١٦ الرواية ٦٣.

الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام^(١).
مرت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام. ووصلوا «مدين». وأغلق أهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر ابواب مدينتهم، وأبوا أن يبيعوا متاعا. اشتد على أتباع الامام الجوع والعطش. صعد الامام على مرتفع يطل على المدينة ونادى بأعلى صوته:
يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقية الله. يقول الله: «بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ».

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخ كبير فأتاهم فقال: يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام. والله لئن لم تخرجوا الى هذا الرجل بالاسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدقوني واطيعوني.. فاني لكم ناصح.

١ - ويروى أنه أشاع بين اهالي المدن الواقعة على الطريق أن محمد بن علي وجعفر بن محمد تنصرا وخرجوا من الاسلام (بحار الانوار ٤٦: ٣٠٦). ونسبه ذلك ما وقع لمولانا وهو من زعماء الحركة الاسلامية المناهضة للاستعمار البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر. فقد أشاعوا عنه أنه وهابي. وكانت هذه التهمة كافية لاسقاط هذا الرجل المناضل من أعين الناس البسطاء السذج. الوهابية كانت مقرونة في اذهان الناس بتلك العصاة التي روعت حجاج بيت الله واستباححت دماء المسلمين في الحجاز.. فكانت كرهية لديهم ومقيبة. وتهمة الوهابية ألصقت بهذا الرجل فتقبلتها الاذهان الساذجة دون أن تسأل عن ميرر هذه التهمة وعن امكان أن يكون رجل مناضل مثل مولانا معتقاً لفكرة جاء بها الانجليز الى العالم الاسلامي (راجع كتاب: المسلمون في حركة الهند بالفارسية) ط آسيا حين ارى موقف الناس من الامام الباقر بعد اتهمه بالنصرانية في ذلك الزمان وموقفهم من مولانا بعد اتهمه بالوهابية في القرن الماضي اتعجب من وحدة المواقف، وردد ما يقوله الشاعر العربي: الناس كالناس والايام واحدة..

استجاب اهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا الى جعفر واصحابه الاسواق^(١).

وأخر فصل في هذه الرواية يبين أيضاً بطش الخليفة العباسي وتجبره. فبعد أن فتح اهل المدينة أبوابها للامام وصحبه، كُتب بجميع ذلك الى هشام. فكتب هشام إلى عامله على مدين يأمره بأن يأخذ الشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته^(٢).

ومع كل ذلك، يتجنب الامام أي مواجهة حادة ومواجهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد الى سيف، ولا يسمح للايدي المتسرفة الى السلاح أن تشهره، ويوجهها توجيهها حكيمًا، وسيف اللسان أيضا لا يشهره إذا لم يتطلب عمله التغيير الاساسي الجذري ذلك، ولا يسمح لآخيه زيد، الذي بلغ به الغضب مبلغه واثارت عواطفه أيما ثورة أن يخرج (يثور). بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافي والفكري.. وهو بناء اساس ايديولوجي في اطار مراعاة التقية السياسية. ولكن هذا الاسلوب لم يكن يمنع الامام - كما اشرنا - من توضيح «حركة الامامة» لاتباعه المختص. وإذا كان أمل الشيعة الكبير وهو إقامة النظام السياسي بمعناه الصحيح العلوي في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحيانا الى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق.

التلويح بمستقبل مشرق من السبل التي مارسها الامام الباقر مع أتباعه.

١ - بحار الانوار ٤٦: ٢٤٦.

٢ - بحار الانوار ٤٦: ٣١٣.

وهو يشير ايضا الى تقويم الامام عليه السلام للمرحلة التي يعيشها من الحركة.
يقول الحكم بن عيينة: بينا أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة (عكازة) له حتى وقف على باب البيت فقال:
السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثم سكت فقال ابو جعفر:
وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت
وقال: السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعا، وردّوا عليه السلام.
ثم أقبل بوجهه على الامام وقال: يا ابن رسول الله أدني منك جعلني الله
فداك. فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبكم وأحب من
يحبكم لطمع في دنيا. وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ
منه لو تركان بيني وبينه. والله إني لأحلّ حلالكم واحرم حرامكم، وانتظر
أمركم، فهل ترجولي جعلني الله فداك؟ فقال الامام: التي التي حتى أقعده إلى
جنبه ثم قال:

«أيها الشيخ إن أبي علي بن الحسين عليه السلام أتاه رجل فسأله عن مثل
الذي سألتني عنه فقال له أبي عليه السلام: إن تمت ترد على رسول الله ﷺ
وعلى علي والحسن والحسين وعلى علي بن الحسين، ويشلج قلبك،
ويبرد فؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام
الكاتبين... وإن تعش ترى ما يقرّ الله به عينك، وتكون معنا في السنام
الاعلى». قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرى: كيف يا أبا جعفر؟
فاعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: الله اكبر يا أبا جعفر إن انا مت أرد على
رسول الله ﷺ وعلى علي والحسن والحسين وعلى علي بن الحسين وتقرّ عيني

ويثليح قلبي ويبرد فؤادي وأستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتين لو
قد بلغت نفسي ههنا، وإن أعش أرى ما يقرُّ الله به عيني، فاكون معكم في
السنام الاعلى؟ ثم اقبل الشيخ ينتحب حتى لصق بالارض. واقبل اهل
البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من
الامام ان يناوله يده فقبلها ووضعها على عينه وخدّه، ثم ضمّها الى صدره،
وقام فودّع وخرج والامام ينظر اليه ويقول: «من أحب أن ينظر الى رجل
من أهل الجنة فليُنظر الى هذا»^(١)

مثل هذه التصريحات، تذكى روح الامل في قلوبٍ تعيش جوّ الاضطهاد
والكبت، فتكسبها زخما ودفعا نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام
الاسلامي العادل.

تسعة عشر عاما من إمامة الباقر عليه السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم
المتماسك الواضح... تسعة عشر عاما من التعليم الايديولوجي، والبناء،
والتكتيك النضالي، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقية، واذكاء روح
الامل... تسعة عشر عاما من مسير شائك وعمر يتطلب من الجدّ والمجهود.
وحين أشرفت هذه الاعوام على الانتهاء واوشكت شمس عمره المباركة
على المغيب، تنفس اعداؤه الصعداء، لانهم بذهاب هذا القائد الموجه سوف
يتخلصون من مصدر إثارة طالما قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم.
لكنّ الامام خيّب آمالهم وفوّت عليهم هذه الفرصة، حين جعل من وفاته
مصدر عطاء، ومنطلق إثارة، ووسيلة توعية مستمرة! لقد وجّه ولده

الصادق في اللحظات الاخيرة من حياته توجيها يمثل نموذجاً رائعاً من نماذج التقية التي مارسها الامام الباقر والاسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة. في الرواية عن ابي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «قال لي ابي: يا جعفر اوقف لي من مالي كذا وكذا لنوادب تندبني عشر سنين بمنى أيام منى»^(١).

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث في حياة الامام الباقر وغفلوا عما فيها من دلالات كبيرة. لقد خلف الامام (٨٠٠) درهم، وأوصى أن يخصص جزء منها لمن يندبه في منى.. وندب الامام في منى له معنى كبير. إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشع دائماً بالتوعية والاثارة وخلق روح الحماس والمقاومة.

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في وسط تركز الوافدين من كل أرجاء العالم الاسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة في موسم الحج. فكل مناسك الحج يربها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة، إلا في منى حيث يبيت الليلتين او الثلاث، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطلع. وندب الامام في هذا المكان سيثير التساؤل عن شخصية هذا المتوفى من هو؟ فيحصلون على الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه. انه من أبناء رسول الله واستاذ الفقهاء والمحدثين. ولماذا يندب في هذا المكان؟ الم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سمّه؟ هل كان يشكل خطراً على الجهاز الاموي؟ و.. و.. عشرات الاسئلة كانت تثار حين يندب الامام في هذا

الفكرية أيضا تلغي تلك الافكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان ووعاظه باسم الدين الى المجتمع^(١). من هنا فان العملية الفكرية لها الاولوية لانها تقضي على الزيف الديني الذي يستند اليه الجهاز الحاكم في مواصلة ظلمه. من جهة اخرى فان الاوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيعي الثوري. الحرب والفقر والاستبداد عوامل تغذي روح الثورة، اضاف الى ذلك عامل الاجواء التي وفرها نشاط الامام الباقر في المناطق القريبة والنائية.

ان الاستراتيجية العامة للإمامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية، ومتطلباتها هي اولاً: ايجاد مجموعة تحمل فكر الامامة وتهضمه وتتطلع بشوق الى تطبيقه، وثانياً: ايجاد مجموعة منظمة مجاهدة مضحية. وهذه المتطلبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم واعداد الارضية النفسية لتقبل الفكر الاسلامي الفائق في جميع الاقطار، وتستلزم أيضا دعوة أخرى لإعداد افراد مضمحين متفانين يشكلون التنظيم السري للدعوة.

وهذا هو سرّ صعوبة الدعوة على طريق الامامة الحقّة. فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت وعلى التفرعن والتجبرّ والعدوان

١ - مع كل الانحرافات التي عصفت بالمجتمع كان الايمان بالدين يسيطر على الافكار والقلوب، والظلمة الطغاة استغلوا هذا الايمان، فقدموا للمجتمع مفاهيم منحرفة باسم الدين تضمن بقاءهم واستمرار ظلمهم وتحكمهم. من ذلك اصفاء صفة القدسية على «البيعة»، فكلما تمادى الخليفة في غيّه وظلمه لا تجوز معصيته ولا النورة عليه لان له في الاعناق بيعة! وكان لهذا المفهوم دوره الكبير في خلق حالة من الخضوع والخنوع أمام الجهاز الحاكم.

والظلم في المجتمع وتلتزم بالمعايير الاسلامية، لابد أن تستند الى ارادة الجماهير وقوتها وايمانها ونضجها. خلافا لتلك الدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها دون أن تتقيد بمبادئ أخلاقية واجتماعية، فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهادفة. وهذا هو سرّ عدم تحقق أهداف حركة الامامة على المدى العاجل، وهو ايضا سرّ الانتصار السريع للحركات الموازية لحركة الامامة (مثل حركة العباسيين).

الظروف المساعدة والارضية المناسبة التي وفّرها نشاط الامام السابق - الباقر عليه السلام - أدّت الى أن يظهر الامام الصادق - في جوّ العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة - بمظهر الفجر الصادق الذي ينتظره اتباع أهل البيت في سالف أيامهم. والامام الباقر ذكر بالاشارة والتصريح ما يركز هذا المفهوم. عن جابر بن يزيد الجعفي: سئل الامام الباقر عليه السلام عن القائم فضرب يده على أبي عبدالله عليه السلام وقال: «هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد عليه السلام»^(١).

والقائم هنا طبعا غير قائم آل محمد في آخر الزمان وهو المهدي الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله. القائم هنا بمعناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والاستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة. بل إنه يقوم بهجوم ثقيل خطير سواء في اسلوب النشاط الفكري او التنظيمي او بأية صورة

أخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومهاجمتهم. فالامام الباقر عليه السلام يركز هنا على مفهوم نهوض الامام الصادق عليه السلام بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة. ولا يركز على النتيجة.. بل في رواية اخرى يتحدث بلغة تكاد تكون يائسة من امكان انتصار حركة الامامة على الوضع السياسي القائم.

ومن الروايات التي يركز فيها الامام الباقر على الدور الذي سينهض به الامام الصادق ما رواه ابو الصباح الكنائي قال: نظر ابو جعفر الى ابنه ابي عبدالله فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾^(١).

ولعل تصريحات الامام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الصادق وخلافته بين الشيعة، وجعلت اصحاب الباقر والصادق يترقبون ساعة الصفريين آونة وأخرى.

في رجال الشيخ الكشي رواية يمكن أن نفهم منها هذه الحالة السائدة بين اتباع أهل البيت آنذاك:

روى ابن مسكان: عن زرارة أنه سأل ابا عبدالله عليه السلام عن رجل من اصحابنا محتفٍ من غرامة. فقال: اصلحك الله ان رجلاً من اصحابنا كان محتفياً من غرامة فان كان هذا الامر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم، وان كان فيه تأخير صالح غرامة؟ فقال له ابو عبدالله: يكون، فقال زرارة: يكون الى سنة؟ فقال ابو عبدالله عليه السلام: يكون إن شاء الله، فقال زرارة: يكون الى سنتين؟ فقال ابو عبدالله عليه السلام: يكون إن شاء الله، فخرج زرارة فوطّن نفسه

على أن يكون إلى سنتين فلم يكن، فقال ما كنت أرى جعفرًا إلا أعلم مما هو^(١).

وعبارة «هذا الأمر» في عرف اتباع أهل البيت كناية عن المستقبل الموعود لهم، أي استلام زمام الحكم أو القيام بما يقربهم من ذلك كالثورة المسلحة مثلاً. والقائم هو الذي يقود تلك العملية.

وفي رواية أخرى يذكر هشام بن سالم، وهو أيضاً من وجوه الشيعة المعروفة أن زرارة قال له: لا ترى على أحوالها غير جعفر، قال: فلما توفي أبو عبدالله عليه السلام أتيت فقلت له: تذكر الحديث الذي حدثني به؟ وذكرته له، وكنت أخاف أن يجحدني، فقال: إني والله ما كنت قلت ذلك إلا برأيي^(٢).

من مجموع ما تقدم نفهم أن الإمام الصادق عليه السلام كان في نظر أبيه وفي نظر الشيعة مظهر آمال الإمامة والتشيع. وكأن سلسلة الإمامة قد ادخرته ليحسد مساعي الإمام السجاد والإمام الباقر عليه السلام. كأنه هو الذي يجب أن يعيد بناء الحكومة العلوية والنظام التوحيدي. يجب أن ينهض نهضة إسلامية أخرى. الإمامان السابقان طويلا المراحل الصعبة الشاقة لهذا الطريق اللاحق وعليه أن يقطع المرحلة الأخيرة. والظروف - كما ذكرنا - قد تهيأت، والإمام استثمر هذه الظروف لينهض برسالته الجسيمة.

منذ بداية استلام المسؤولية حتى الوفاة قضى ٣٣ عاماً في جهاد متواصل. وخلال هذه الأعوام كانت الظروف في مد وجزر، مرة تتجه لصالح

١ - رجال الكشي: ١٥٨ ط: مصطفوي.

٢ - رجال الكشي: ١٥٦ - ١٥٧ ط: مصطفوي.

مدرسة اهل البيت ومرة اخرى تعاكسها. مرة تبعث على التفاؤل وعلى أن النصر قريب، ومرة اخرى تشتد الضغوط وتختنق الانفاس فيخيّل الى أصحاب الامام أن كل الآمال قد تبددت. والامام الصادق (عليه السلام) في كل هذه الاحوال ماسك بدقّة القيادة بعزم وتصميم يجتاز بالسفينة عبر هذه الامواج المتلاطمة الممزوجة بالامل واليأس. لا يفكر الا بما يجب قطعه في المستقبل من أشواط، باعثة الجهد والنشاط والايمان في اتباعه للوصول الى ساحل النجاة.

ويلزمنا هنا أن نشير الى ظاهرة مؤسفة تواجه كل الباحثين في حياة الامام الصادق (عليه السلام)، وهي الغموض الذي يكتنف السنين الاولى لبدايات إمامة الصادق (عليه السلام) التي اقترنت بأواخر أيام بني أمية. كانت حياة صاحبة متلاطمة مليئة بالحوادث الجسام، يمكن أن نفهم بعض ملامحها من خلال مئات الروايات. غير أن المؤرخين والمحدثين لم يعرضوا لنا هذه الفترة بشكل مرتب منسجم مترابط، ولا بد للباحث أن يعتمد على القرائن، وأن يلاحظ التيارات العامة في ذلك الزمان، ويقرن كل رواية بما حصل عليه من معلومات مسبقة ليفهم محتوى الرواية وتفاصيلها.

ولعلّ أحد أسباب هذا الابهام يكمن في سرية حركة الامام واتباعه.. فالتنظيم السري القائم على أسس صحيحة يجب أن تبقى المعلومات عنه سرية مخفية، وأن لا يطلع عليها من هو خارج التنظيم. ولا تنشر هذه المعلومات الا بعد أن تحقق الحركة انتصارها. ومن هنا تتوفر لدينا معلومات وافية عن تفاصيل الاتصالات السرية في حركة العباسيين، لأن حركتهم

انتصرت. ولا شك أن حركة أهل البيت لو قُدِّر لها أن تنتصر وتستلم زمام الامور لاطلعتنا اليوم على أسرار تنظيمها الواسع.

وثمة سبب آخر يمكن أن يكون عاملاً في هذا الغموض هو أن المؤرخين كانوا يدونون عادة ما يرضي السلطان، ولذلك نرى في كتبهم تفاصيل حياة الخلفاء ولهوهم ولعبهم وسهراتهم ومجالس طربهم، بينما لا نرى شيئاً يؤبه له بشأن الثائرين والمظلومين والمسحوقين، لأن مثل هذه المعلومات تحتاج من الباحث أن يتحرى ويبحث ويخاطر، بينما حياة الخلفاء مادة جاهزة وغنيمة باردة تكسب الرضا وتستدر العطاء.

والمؤرخون الخاضعون للخلافة العباسية استمروا يكتبون على هذا المتوال مدة خمسمائة سنة بعد حياة الامام الصادق، ومن هنا لا يمكن أن نتوقع العثور على شيء معتد به من المعلومات عن حياة الامام الصادق (عليه السلام) أو أي إمام من أئمة الشيعة في مثل هذه المصادر.

الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يهدينا الى الخط العام لحياة الامام الصادق (عليه السلام) هو اكتشاف المعالم الهامة لحياة الامام من خلال الاصول العامة لفكر الامام وأخلاقه. ثم نبحث في القرائن والادلة المستتارة التاريخية والقرائن الاخرى غير التاريخية لتتوصل الى التفاصيل.

الفصل الثالث

المعالم البارزة في حياة الإمام الصادق عليه السلام

والمعالم الهامة البارزة في حياة الامام الصادق عليه السلام وجدتها من منظور
مبحثنا تتلخص بما يلي:

١ - تبين مسألة الامامة والدعوة إليها.

٢ - بيان الاحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة اهل البيت عليه السلام
عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣ - اقامة تنظيم سري - ايدولوجي - سياسي.

وطريقة بحثنا أن ندرس كل واحد من هذه المعالم، ونضع في النهاية
فهرساً لنشاطات الامام، وأن يكون ذلك قدر المستطاع بأسلوب المؤرخين
لا بأسلوب المحدثين.

١ - تبين مسألة الامامة والدعوة إليها

هذا الموضوع يشكل أبرز خصائص دعوة أئمة أهل البيت، منذ السنوات
الاولى التي اعقبت رحيل النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم، كانت مسألة إثبات امامة أهل
البيت عليه السلام تشكل طليعة الدعوة في كل أعصار الامامة.. هذه المسألة

نشاهدها أيضاً في ثورة الحسين بن علي عليه السلام، ونشاهدها بعد ذلك أيضاً في ثورات أبناء أئمة أهل البيت مثل زيد بن علي. ودعوة الإمام الصادق عليه السلام لم تخرج عن هذا النطاق أيضاً.

قبل أن نستعرض وثائق هذا الموضوع، يجب علينا أن نعرف أولاً مفهوم «الامامة» في الفكر الاسلامي. وما معنى الدعوة الى الامامة.

كلمة «الامامة» تعني في الاصل القيادة بمعناها المطلق وفي الفكر الاسلامي تطلق غالباً على مصداقها الخاص، وهو القيادة في الشؤون الاجتماعية، الفكرية منها والسياسية.

واينما وردت في القرآن مشتقات لكلمة الامامة (امام، أئمة)، فيراد بها هذا المعنى الخاص لقيادة الامة. ففي بعض المواضع يقصد بها القيادة الفكرية وفي مواضع أخرى يراد بها القيادة السياسية، او الاثنين معاً.

بعد رحيل النبي ﷺ وظهور الانشقاق الفكري والسياسي بين المسلمين اتخذت كلمة الامامة والامام مكانة خاصة لأن مسألة القيادة السياسية شكلت المحور الاساس للاختلاف. والكلمة كان لها في البداية مدلول سياسي أكثر من أي مدلول آخر، ثم انضمت اليها بالتدريج معاني أخرى، حتى أصبحت مسألة «الامامة» تشكل في القرن الثاني أهم مسائل المدارس الكلامية ذات الاتجاهات الفكرية المختلفة، وكانت هذه المدارس تطرح آراءها بشأن شروط الامام وخصائصه، أي شروط الحاكم في المجتمع الاسلامي، وهو معنى سياسي للامامة.

إن الامامة في مدرسة أهل البيت - التي يرى أتباعها أنهم يمثلون أنقى تيار

فكري اسلامي - لها نفس المعنى، ونظرية هذه المدرسة بشأن الامامة تتلخص فيما يلي:

الامام والزعيم السياسي في المجتمع الاسلامي يجب أن يكون منصوباً من الله، باعلان من النبي. ويجب أن يكون قائداً فكرياً ومفسراً للقرآن وعالمًا بكل دقائق الدين ورموزه، ويجب أن يكون معصوماً مبرأً من كل عيب خلقي وأخلاقي وسبيي. ويجب أن يكون من سلالة طاهرة نقية الى غير ذلك. وبذلك فان الامامة كانت في العرف الاسلامي خلال القرنين الاول والثاني تعني القيادة السياسية، وفي العرف الخاص بأتباع أهل البيت تعني، اضافة الى القيادة السياسية، القيادة الفكرية والاخلاقية ايضاً.

فالشريعة تعترف بامامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتعاً بخصائص هي - اضافة الى قدرته على ادارة الامور الاجتماعية - مقدرته على التوجيه والارشاد والتعليم في الحقل الفكري والديني، والتزكية الخلقية. وإن لم تتوفر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يرقى الى مستوى «الامامة الحققة». وليس بكاف - في نظرهم - حسن الادارة السياسية والاقتدار العسكري والفتوحات وامثالها من الخصائص التي كانت معياراً كافياً لدى غيرهم.

فمفهوم الامامة لدى أتباع أهل البيت - اذن - يتجه الى اعطاء إمامة المجتمع صفة قيادة ذلك المجتمع في مسيرته الجماعية والفردية. فالامام رائد مسيرة التعليم والتربية وقائد المسيرة الحياتية. ومن هنا كان «النبي» ﷺ إماماً أيضاً، لانه القائد الفكري والسياسي للمجتمع الذي اقام دعائه. وبعد النبي تحتاج الامة الى امام يخلفه ويتحمل عبء مسؤولياته، (بما في ذلك

المسؤولية السياسية). ويعتقد الشيعة أن النبي نصّ على خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم تنتقل الامامة بعده الى الائمة المعصومين من ولده ^(١).

ولابد من الاشارة الى أن تداخل المهام الثلاث للامامة: القيادة السياسية، والتعليم الديني، والتهذيب الاخلاقي والروحي في الامامة الاسلامية ناشئ من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الاسلامي للحياة البشرية. فقيادة الامة يجب أن تشمل قيادتها في هذه الحقول الثلاثة أيضا. وبسبب هذه السعة وهذه الشمولية في مفهوم الامامة لدى الشيعة كان لابد أن يعين الامام من قبل الله سبحانه.

نستنتج مما سبق أن الامامة ليست، كما يراها اصحاب النظرة السطحية، مفهوماً يقابل «الخلافة» و«الحكومة» أو منصبا منحصر بالامور المعنوية والروحية والفكرية، بل إنها في الفكر الشيعي «قيادة الامة» في شؤون دنياها وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية (رئاسة الدولة) وايضا في شؤون التعليم والارشاد والتوجيه المعنوي والروحي وحل المشاكل الفكرية وتبيين الايديولوجية الاسلامية «القيادة الفكرية». وهذه المسألة الواضحة أضحت مع الاسف غريبة على أذهان اكثر المعتقدين بالامامة. ولذلك نرى من الضروري عرض بعض النماذج من مئات الوثائق القرآنية والحديثية في هذا المجال:

في كتاب «الحجة» من «الكافي» حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الامام ووصفه ويستضمن

معاني عميقة ورائعة.

من ذلك ما ورد بشأن الإمامة بأنها: هي منزلة الانبياء وإرث الاوصياء، ان الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام ان الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين، ان الإمامة أس الاسلام النامي، وفرعه السامي، بالامام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير النية والصدقات، وامضاء الحدود والاحكام، ومنع الثغور والاطراف^(١).

وحول الامام انه:

«النجم الهادي، والماء العذب، والمنجي من الردى، والسحاب الماطر، ومفرج العباد في الداهية، وأمين الله في خلقه، وحجته على عباده، وخليفته في بلاده، والداعي الى الله، والذاب عن حرم الله، ونظام الدين، وعز المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين»^(٢).

كل ما كان يمارسه النبي صلى الله عليه وآله من مسؤوليات ومهام يتحملها علي عليه السلام والأئمة من ولده^(٣).

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق عليه السلام نرى تأكيداً على إطاعة «الاولياء» وتوضيح الرواية أن الاولياء هم أنفسهم الذين عبر عنهم

١ - اصول الكافي ١: ٢٠٠.

٢ - نفس المصدر «عبارات متفرقة مختارة من النص».

٣ - جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وآله (... ولقد حملت على مثل حملته ...) وكذلك يجري لأئمة الهدى واحداً بعد واحد... الكافي ١: ١٩٦.

القرآن بأولي الامر^(١).

إنّ مئات الروايات المتفرقة في الابواب المختلفة تصرّح أن مفهوم الامام والامامة في الفكر الشيعي ما هو الا القيادة وادارة شؤون الامة المسلمة، وأنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الاصحاب الحقيقيون للحكومة. وتدلل جميعا بما لا يقبل الشك على أن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ادعائهم الامامة كانوا لا يقتصرون بالمطالبة على المستوى الفكري والمعنوي بل كانوا يطالبون بالحكومة ايضا. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل انما هي دعوة لحركة سياسية عسكرية لاستلام السلطة.

هذه الحقيقة ظلت خافية على الباحثين في العصور التالية^(٢)، بينما كانت في فهم اصحاب الائمة والمعاصرين لهم من أوضح الحقائق حتى إن «الكُميت» في احدى قصائده الهاشميات يصف أئمة أهل البيت بأنهم ساسة يقودون الناس بطريقة تختلف تماما عن الطريقة التي يمارسها الحكام الظلمة الذين يعاملون الناس كالبهائم^(٣).

نعود الى الموضوع الاصلي وهو أن بيت القصيد في دعوة الامام الصادق عليه السلام وسائر أئمة اهل البيت كان يدور حول «الامامة». ولا ثبات هذه

١ - الكافي ١: ١٨٧، ح ٧ و ١٢: ١٨٩، ح ١٦.

٢ - في العقود الاخيرة صدرت عن المستشرقين والعلماء المسلمين الشيعة والسنة كتابات تصور الدور السلبي للأئمة تجاه مسألة الحكم، او الدور المحايد، او المدهان بل الدور البعيد كل البعد عن السياسة. راجع مثلا: نظرية الامامة لدى الشيعة، والتنسيق والتصوف، والامام الصادق والمذاهب الاربعة، والعباسيون الاوائل.

٣ - الغدير: ٢: ١٨٧-٢١٢.

الحقيقة التاريخية، أمامنا روايات متضاربة تنقل بوضوح وصراحة عن الإمام الصادق (عليه السلام) ادعاءه الإمامة. وكما سنوضح فيما بعد، أن الإمام حين يعلن دعوته هذه كان يرى نفسه في مرحلة من الجهاد تستدعي أن يرفض بشكل مباشر صريح حكام زمانه وأن يعلن نفسه بأنه صاحب الحق الواقعي وصاحب الولاية والإمامة. ومثل هذا التصدي يعني عادة اجتياز سائر المراحل الجهادية السابقة بنجاح. ولا بد أن يكون الوعي السياسي والاجتماعي قد انتشر في قاعدة واسعة، وأن الاستعداد محسوس بالقوة في كل مكان، وأن الأرضية الأيديولوجية قد توفرت في عدد ملحوظ من الأفراد، وإن جمعاً غفيراً آمن بضرورة إقامة حكومة الحق والعدل، وأن يكون القائد - أخيراً - قد اتخذ قراره الحاسم بشأن هذه المواجهة الساخنة. وبدون هذه المقدمات فإن إعلان إمامة شخص معين وقيادته الحق للمجتمع أمر فيه تعجل ولا جدوى منه.

المسألة الأخرى التي لا بد من التركيز عليها في هذا المجال هي أن الإمام ما كان يكتفي في بعض الموارد باثبات إمامته وحسب، بل يذكر إلى جانب اسمه أسماء أئمة الحق من أسلافه أيضاً، أي إنه يطرح في الحقيقة سلسلة أئمة أهل البيت بشكل متصل غير قابل للتجزئة والانفصال.

هذا الموقف يشير إلى ارتباط جهاد أئمة أهل البيت وتواصله من الأزمنة السابقة إلى عصر الإمام الصادق (عليه السلام). أن الإمام الصادق (عليه السلام) يقرر إمامته باعتبارها النتيجة الحتمية المترتبة على إمامة أسلافه، وبذلك يبين جذور هذه الدعوة وعمقها في تاريخ الرسالة الإسلامية وارتباطها بصاحب الدعوة

علينا رجل من أهل الكوفة فدعا الناس الى طاعتك وولايتك، فأجاب قوم وأنكر قوم وورع قوم ووقفوا. قال الامام عليه السلام: فمن أي الثلاث أنت؟ قال: من الفرقة التي ورعت ووقفت. قال: فأين كان ورعك ليلة كذا وكذا (وذكره بسقوطه في موقف شهواني). فارتاب الرجل^(١).

الداعية كما ترى من أهل الكوفة، ومنطقة الدعوة خراسان، واسم الرجل مكتوم، ودعوته الى إمامة جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وولايته وطاعته. ثم وثائق أخرى تبين محتوى دعوة ائمة اهل البيت عليهم السلام وشيعتهم الى الامامة تعرضها المناقشات والمجادلات بينهم وبين خصومهم السياسيين (الامويين والعباسيين). هذه المنازعات كانت تدور احيانا بلغة الاستدلال الكلامي والديني، وأحيانا بلغة الادب الرفيع المتمثل بالشعر، وكان كل الحجاج يقوم على أساس إثبات حق الامامة السياسية والحكم لأئمة اهل البيت عليهم السلام، ومقارعة المتريعين ظلما وغصبا على كرسي حكومة المسلمين. ان عصر الامام الصادق - لمعاصرته حركة بني العباس وانتصار هذه الحركة - كان مفعما بهذا اللون من الحجاج.

كان شعراء بني العباس يحاولون اثبات حق الحكم لبني العباس استنادا الى نفس الادلة التي يقدمها عادة الطامعون الى السلطة والمتشبثون بكرسي الحكم. ويقف شعراء الشيعة مقارعين لحججهم مستدلين على زيف الحكم العباسي من منطق اسلامي يقوم على أساس رفض الظلم والاجرام والخيانة بحق الامة الاسلامية.

وللحجج الشعري بين العباسيين والعلويين أهمية في هذا المجال، لما كان ينهض به الشعر آنئذ من دور كبير في التعبير عن العواطف والافكار، ولما كان يؤديه في القاعدة الشعبية من تأثير. يذكر صاحب كتاب «العباسيون الاوائل» دور الادب في القرنين الاول والثاني فيقول:

«... كان الادب يؤثر في النفوس ويكسب عواطف الناس وميولهم الى هذه الفئة أو تلك، وكان الشعراء والخطباء بمثابة جريدة العصر يعبر كل منهم عن رأي سياسي ويدافع عن حزب معين، مبرزاً الدليل تلو الدليل على صحة دعواه، مفنداً آراء الخصوم بكلام مؤثر وأسلوب بليغ»^(١).

شعراء البلاط العباسي كانوا يجتهدون في اثبات حق العباسيين في الخلافة باعتبار ارتباطهم بالنبي عن طريق العمومة، مستدلين على ذلك بأن الارث لا ينتقل الى أبناء البنت مع وجود الاعمام. فالخلافة بعد النبي من حقّ العباس عم النبي ومن بعده أبنائوه من بني العباس:

قال مروان بن أبي حفصة:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثۃ الاعمام

وقال اiban بن عبد الحميد اللاحقي:

فأبناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الارث قد حجب
ومن جانب آخر انبرى الشعراء العلويون منطلقين من عاطفة الشعور بالظلم للرد على هذه الادلة، بنفس المنطق، وأحياناً بمنطق آخر للاستدلال على حق أئمة أهل البيت في الامامة، من ذلك استدلالهم بحديث غدير خم

ويبدو أن هذا الاستدلال أورده العلوي رداً على استدلال العباسيين في وراثتهم الخلافة، لأن بني العباس لم تكن لهم حجة سوى هذا الارت المزعوم، فأراد أن يسدّ عليهم الطريق ويرد عليهم بنفس منطقهم. ويلاحظ في العبارة أن ذا النفس الزكية يركز على إمامة علي انطلاقاً من فهمه لمعنى الامامة، ثم يركز على طبيعة دعوة البيت العلوي التي يمثلها هذا الناصر.

٢ - بيان الاحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله

هذا النشاط يمكن ملاحظته أيضاً في حياة الامام الصادق عليه السلام بشكل متبّز عما نراه في حياة بقية أئمة آل البيت، حتى سمي فقه الشيعة باسم «الفقه الجعفري». حتى الذين يغضون الطرف عن النشاط السياسي للامام الصادق يجمعون على أن الامام كان يدير أوسع حوزة فقهية أو واحدة من أوسع الحوزات الفقهية في زمانه. والذي بقي مستورا عن أعين أغلب الباحثين في حياة الامام هو المفهوم السياسي والهجومى لهذا اللون من نشاطات الامام وهذا ما سنتعرض له الآن.

لا بد أن نذكر أولاً أن منصب الخلافة في الاسلام له خصائص متميزة تجعل الحاكم متميّزاً عن الحكام في أنظمة الحكم الاخرى. فالخلافة ليست جهازاً سياسياً فحسب، بل هي جهاز سياسي - ديني. واطلاق لقب الخليفة على الحاكم الاسلامي يؤيد هذه الحقيقة، فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام دينية ومهام قيادية سياسية في المجتمع.

والخليفة في الاسلام يتحمل المسئوليات السياسية والمسئوليات الدينية معا. هذه الحقيقة الثابتة دفعت الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الاولين والذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين، أو لم يكن لهم منه حظ أصلا، دفعتهم الى سد هذا النقص عن طريق رجال دين مسخرين لهم. فاستخدموا فقهاء ومفسرين ومحدثين في بلاطهم ليكون جهازهم الحاكم جامعا للجانبين الديني والسياسي.

والفائدة الاخرى من وجود وعاظ السلاطين في الجهاز الحاكم هي إن الحاكم الظالم المستبد كان قادراً متى ما أراد أن يغير ويبدل أحكام الدين وفقا للمصالح. وكان هؤلاء المأجورون يقومون بهذه العملية ارضاء لأولياء نعمتهم تحت غطاء من الاستتباط والاجتهاد ينطلي على عامة الناس.

الكتاب والمؤرخون المتقدمون ذكروا لنا نماذج فظيعة من اختلاق الحديث ومن التفسير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة، وسنشير الى جانب منها في اقسام حديثنا التالية. هذا العمل الذي اتخذ غالبا في البداية (حتى أواخر القرن الهجري الاول) شكل وضع رواية أو حديث، راح تدريجيا يأخذ طابع الفتوى.

ولذلك نرى في أواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ظهور فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجراجة في اصول الاستتباط ليصدروا الاحكام وفق أذواقهم التي كانت في الواقع أذواق الجهاز الحاكم.

هذه العملية نفسها أنجزت أيضا في حقل تفسير القرآن، فالتفسير بالرأي اتجه غالبا الى إعطاء مفاهيم عن الاسلام لا تقوم على أساس سوى ذوق

المفسر ورأيه المستمد من ذوق الجهاز الحاكم وإرادته.

من هنا انقسمت العلوم الاسلامية: الفقه والحديث والتفسير منذ أقدم العصور الاسلامية الى تيارين عامين:

التيار الاول: تيار مرتبط بجهاز الحكومة الظالمة الغاصبة، ويتميز بتقديم الحقيقة في موارد متعددة قربانا على مذهب «المصالح» التي هي في الواقع مصالح الجهاز الحاكم، ويتميز ايضا بتحريف أحكام الله لقاء دراهم معدودات.

والتيار الثاني: التيار الاصيل الامين الذي لا يرى مصلحة أرفع وأسمى من تبين الاحكام الالهية الصحيحة، وكان يصطدم شاء أم أبى في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين، ولذلك اتجه منذ البدء اتجاها شعبيا في اطار من الحيلة والحذر.

انطلاقا من هذا الفهم نعرف بوضوح أن اختلاف «الفقه الجعفري» مع الفقهاء الرسميين في زمن الامام الصادق لم يكن اختلافا فكريا عقائديا فحسب، بل كان اختلافا يستمد وجوده من محتواه الهجومي المعارض أيضا. أهم أبعاد هذا المحتوى إثبات خواء الجهاز الحاكم وفراغه من كل مضمون ديني وعجزه عن ادارة الشؤون الفكرية للأمة، وبعبارة أخرى عدم صلاحيته للتصدي لمنصب «الخلافة» والبعد الآخر تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي... هذه التحريفات القائمة على أساس فكر «مصلحي» في بيان الاحكام الفقهية ومداهنة الفقهاء للجهاز الحاكم. والامام الصادق عليه السلام بنشاطه العلمي وتصديه لبيان أحكام الفقه والمعارف

الاسلامية وتفسير القرآن بطريقة تختلف عن طريقة وعاظ السلاطين قد اتخذ عمليا موقف المعارضة تجاه الجهاز الحاكم. الامام بنشاطه هذا قد يلغي كل الجهاز الديني والفقهي الرسمي الذي يشكل أحد أضلاع حكومة الخلفاء، ويفرغ الجهاز الحاكم من محتواه الديني.

ليس بأيدينا سند ثابت يبين التفات الجهاز الاموي الى هذا المحتوى المعارض لما قام به الامام الصادق (عليه السلام) من نشاط علمي فقهي. ولكن أغلب الظن أن الجهاز الحاكم العباسي وخاصة في زمن المنصور الذي كان يتمتع بحنكة وذكاء وتجربة اكتسبها من صراعه السياسي الطويل مع الحكم الاموي قبل وصوله الى السلطة. كان يعي المسائل الدقيقة في نشاطات البيت العلوي. وكان الجهاز الحاكم العباسي يفهم الدور الفاعل الذي يستطيع أن يؤديه هذا النشاط العلمي بشكل غير مباشر.

والتهديدات والضغوط والمضايقات التي كانت تحيط بنشاطات الامام الصادق (عليه السلام) التعليمية والفقهية من قبل المنصور المنقولة الينا في روايات تاريخية كثيرة ناتجة من هذا الالتفات الى حساسية المسألة. وهكذا اهتمام المنصور بجمع الفقهاء المشهورين في الحجاز والعراق في مقر حكومته - كما تدل على ذلك النصوص التاريخية العديدة - فانه ناشئ عن هذا الالتفات أيضا.

في حديث الامام وتعاليمه لاصحابه ومقربيه كان يستند الى «خواء الخلفاء وجهلهم» ليستدل على أنهم في نظر الاسلام لا يحق لهم أن يحكموا. ونحن نشهد هذا المضمون الهجومي على الجهاز الحاكم بوضوح وصراحة في

دروسه الفقهية.

يروى عنه قوله عليه السلام: «نحن قوم فرض الله طاعتنا وانتم تأتمون بمن لا يُعذر الناس بجهالته»^(١).

أي إن الناس انحرفوا بسبب جهل حكامهم وولادة أمورهم، وسلخوا سبيلا غير سبيل الله. وهؤلاء غير معذورين لدى الله. لأن اطاعة هؤلاء الحكام كان عملا انحرافيا. فلا يُبرر ما يستتبعه من وقوع في الانحرافات^(٢).

في تعليقات الأئمة عليهم السلام قبل الامام الصادق وبعده نرى أيضا تركيزا على ضرورة اقتران القيادة السياسية بالقيادة الفكرية والايديولوجية. ففي رواية عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن جدّه الامام محمد الباقر عليه السلام قال: إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني اسرائيل، أينما دار التابوت دار الملك (تأمل بدقة المعنى الرمزي في التعبير) وأينما دار السلاح فينا دار العلم.. وفي رواية أخرى: حيثما دار السلاح فينا فثمّ الامر (الحكم)^(٣).

ويسأل الراوي الامام: فيكون السلاح مزايلاً (مفارقاً) للعلم؟

قال الامام: لا. أي إن قيادة المجتمع المسلم يجب أن تكون في من بيده السلاح والعلم معا.

الامام إذن يرى أن علم الدين وفهم القرآن بشكل صحيح شرط من

١ - الكافي ١: ١٨٦، ح ٣.

٢ - القرآن الكريم يدين أيضا بأساليب متعددة هذا اللون من الاتّباع المؤدي الى الضلال، ويردّ كل عذر يتوسل به التابعون في انحرافهم. راجع سورة البقرة: ١٦٧، الشعراء: ٩١ - ١٠٢، سبأ: ٣١ - ٣٣، النساء: ٩٧.

٣ - الكافي ١: ٢٣٨.

شروط الامامة، ومن جهة أخرى فهو بنشاطه العلمي وجمع عدد غفير من مشتاقى علوم الدين حوله، وتعليمه الدين بشكل يختلف تماماً عن الطريقة المعتادة لدى العلماء والمحدثين والمفسرين المرتبطين بجهاز الخلافة، يثبت عملياً أصالة المحتوى الديني لمدرسته وزيف الظاهر الديني الذي يستقصيه جهاز الخلافة ومن لف لفة من علماء بلاطه. وعن هذا الطريق المهاجم المتواصل العميق الهادىء يضيئ على جهاده بعداً جديداً.

وكما ذكرنا من قبل، فإن الحكام العباسيين الأوائل الذين قضوا سنين طويلاً قبل تسلمهم السلطة في نفس أجواء الجهاد العلوي وإلى جانب انصار العلويين، كانوا على علم بكثير من الحطط والمنعطفات، وكانوا مستفهمين للدور التهاجمي الذي يؤديه هذا النشاط في الفقه والحديث والتفسير أكثر من أسلافهم الأمويين. وقد يكون هذا السبب هو الذي دفع المنصور العباسي في مواجهاته مع الإمام الصادق (عليه السلام) أن يمنع الإمام زمناً من الجلوس في حلقات التدريس وعن تردد الناس عليه. حتى إن المفضل بن عمر يقول: «إن المنصور قد كان همّ بقتل أبي عبد الله (عليه السلام) غير مرة فكان إذا بعث إليه ودعاه ليقتله فإذا نظر إليه هابه ولم يقتله غير أنه منع الناس عنه ومنعه من القعود للناس واستقصى عليه اشد الاستقصاء حتى أنه كان يقع لاحدهم مسألة في دينه في نكاح أو طلاق أو غير ذلك فلا يكون علم ذلك عندهم ولا يصلون إليه فيعتزل الرجل وأهله. فشق ذلك على شيعته وصعب عليهم...»^(١).

٣- إقامة تنظيم سري سياسي - ايدولوجي

مر بنا أن الإمام الصادق عليه السلام قاد في أواخر العصر الأموي شبكة إعلامية واسعة استهدفت الدعوة إلى إمامة آل علي عليه السلام وتبيين مسألة الإمامة بشكلها الصحيح، وهذه الشبكة نهضت بدور مثمر وملحوظ في أقاصي بقاع العالم الإسلامي وخاصة في عراق العرب وخراسان لنشر مفاهيم الإمامة. ونشير هنا إلى جانب صغير من هذه المسألة. مسألة التنظيمات السرية في الحياة السياسية للإمام الصادق عليه السلام وباقي الأئمة من أهم المسائل وأكثرها حساسية، وهي في الوقت نفسه من أغمض فصول حياتهم وأشدها إبهاما. وكما ذكرنا لا يمكن أن نتوقع وجود وثائق صريحة في هذا المجال، حيث لا يمكن أن نتوقع من الإمام أو أحد أصحابه أن يعترف صراحة بوجود هذه التنظيمات السياسية - الفكرية. فهذا مما لا يمكن الكشف عنه. الشيء المعقول هو أن الإمام ينفي بشدة وجود مثل هذا التنظيم السري، وهكذا أصحابه ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرضوا لاستجواب جهاز السلطة. هذه هي خاصية العمل السري، والباحث في حياة الأئمة أيضا من حقّه أن لا يقتنع بوجود مثل هذا التنظيم دون دليل مقنع. إذن فلا بد أن نبحث عن القرائن والشواهد والحوادث التي تبدو بسيطة لا تلفت نظر المطالع العادي، لنبحث عن دلالاتها في هذا المجال، بهذا اللون من التدقيق في حياة الأئمة خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم يستطيع الباحث أن يطمئن إلى وجود مثل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادة الأئمة.

ما المقصود بالتنظيم؟ ليس المقصود به طبعاً حزباً منظماً بالمفهوم المعروف اليوم، ولا يعني وجود كوادر منظمة ذات قيادات اقليمية مرتبطة ارتباطاً هرمياً، فلم يكن شيء من هذا موجوداً ولا يمكن أن يوجد، المقصود بالتنظيم وجود جماعة بشرية ذات هدف مشترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو ذلك الهدف وترتبط بمركز واحد وقلب نابض واحد ودماغ مفكر واحد، وتسود بين أفرادها روابط عاطفية مشتركة.

هذه الجماعة كانت في زمن علي عليه السلام (أي خلال السنوات الخمس والعشرين بين وفاة الرسول الاكرم وبيعته للخلافة) كان يجمعها الايمان بأحقية الامام علي عليه السلام في الخلافة، وكانت تعلن وفاءها الفكري والسياسي للامام، غير أنها كانت تحذو حذو علي عليه السلام في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الاسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به الامام علي في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الاسلام ونشره ومحاولة الحد من الانحرافات. واتخذت لولاتها هذا اسم «شيعة علي». ومن وجوههم المشهورة: سلمان وعمار وابوذر وابي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الاجلاء.

ولدينا شواهد تاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشأن إمامة علي عليه السلام بشكل حكيم. وعملهم هذا كان مقدمة لالتفات الناس حول الامام واقامة الحكم العلوي.

بعد أن استلم الامام علي مقاليد الامور سنة ٣٥ هـ كان حول الامام علي صنفان من الناس. صنف عرف الامام ومكانته وفهم معنى الامامة وآمن

بها، وهم شيعة الذين تربوا على يد الامام بشكل مباشر أو غير مباشر، وعامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الامام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكرياً وروحياً بالجماعة التي رباها الامام تربية خاصة.

ولذلك نجد بين اتباع الامام صنفين من الافراد بينهما تفاوت كبير. صنف يضم عماراً ومالكا الاشتر وحجر بن عدي وسهل بن حنيف وقيس بن سعد وامثالهم، وصنف من مثل ابي موسى الاشعري وزيايد بن أبيه ونظرانهم. بعد حادثة صلح الامام الحسن عليه السلام كانت الخطوة الهامة التي اتخذها الامام نشر فكر مدرسة اهل البيت ولم تثن المواليين لهذا الفكر، إذ اتبحت الفرصة لحركة أوسع بسبب اضطهاد السلطة الاموية، وهكذا كان دائماً، الاضطهاد يؤدي الى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجذرهما بدل تبعثرها وتشتتها. واتجهت استراتيجية الامام الحسن عليه السلام الى تجميع القوى الاصلية الموالية، وحفظها من بطش الجهاز الاموي، ونشر الفكر الاسلامي الاصيل في دائرة محدودة ولكن بشكل عميق، وكسب الافراد الى صفوف المواليين وانتظار الفرصة المؤاتية للثورة على النظام وتفجير أركانه واحلال الحكم العلوي مكانه.. وهذه الاستراتيجية في العمل هي التي جعلت الامام الحسن امام خيار واحد وهو الصلح.

ومن هنا نرى أن جمعاً من الشيعة برآسة مسيب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي يقدمون على الامام الحسن بعد حادثة الصلح في المدينة حيث اتخذها الامام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة، ويقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والاستيلاء على الكوفة

والاشتباك مع جيش الشام، والامام يستدعي هذين الاثنين من بين الجمع ويحتلي بهما ويحدثهما بحديث لا نعرف فحواه، يخرجان بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة. وحين يعود الاثنان الى من جاء معها يفهمانهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة ولا بد من العودة الى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها^(١).

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدث ببعض المؤرخين المعاصرين الى اعتبار ذلك المجلس الحجر الاساس في إقامة التنظيم الشيعي. والواقع أن الخطوة الاولى لاقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقا قد اتخذت في ذلك اللقاء بين الامام الحسن عليه السلام والرجلين القادمين من العراق، فان مثل هذه الخطوة قد أوصى بها الامام عليه السلام من قبل حين أوصى المقربين من اصحابه بقوله: «لو قد فقدتموني لرأيتكم بعدي أشياء يتمنى أحدكم الموت مما يرى من الجور والعدوان والأثرة والاستخفاف بحق الله والخوف على نفسه، فاذا كان ذلك:

- فاعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا..

- وعليكم بالصبر والصلاة.

- والتقية.

واعلموا أن الله عز وجل يبغض من عباده (التلّون) لاتزولوا عن (الحق

١ - نفس المعنى جاء في كتاب الشيخ راضي آل ياسين صلح الحسن عليه السلام: ٣١ - ٣٢ ط:

بيروت.

واهلكه) فان من استبدل بنا هلك، وفاتته الدنيا وخرج منها آثماً»^(١)
 هذا النص الذي يرسم بوضوح الوضع المأساوي في العصر الاموي،
 ويوجه المؤمنين الى التلاحم والتعاقد والتنسيق والانسجام يعتبر أروع
 وثيقة من وثائق الجهاز التنظيمي في حركة آل البيت عليهم السلام وهذا المشروع
 التنظيمي يتبلور في شكله العملي في اللقاء بين الامام الحسن عليه السلام واثنين من
 الشيعة الخالص. ومما لا شك فيه أن أتباع أهل البيت لم يكونوا جميعاً مطلعين
 على هذا المشروع الدقيق. ولعل هذا يبرر ما كان يصدر من بعض صحابة
 الامام الحسن عليه السلام من اعتراض وانتقاد. وكان المعترضون يواجهون قول
 الامام ما مضمونه: «... من يدري، لعله اختبار لكم ونفع زائل
 لاعدائكم...».

وفي هذه الاجابة إشارة خفية الى سياسة الامام وتديره^(٢).
 خلال الاعوام العشرين من حكومة معاوية بكل ما احاط فيها البيت
 العلوي من إعلام مكثف مضاد بلغ درجة لعن الامام أمير المؤمنين عليه السلام على
 منابر المسلمين، وبكل ما شهدتها من انسحاب الامامين الحسن
 والحسين عليهم السلام من ساحة النشاط العلني المشهود، لا نرى سبباً في انتشار فكر
 أهل البيت واتساع القائدة الشيعية في الحجاز والعراق سوى وجود هذا
 التنظيم ولنلق نظرة على الساحة الفكرية في هذه المناطق بعد عشرين عاماً

١ - تحف العقول: ١١٥ ط ٢.

٢ - هذا الوضع يمكن مقارنته وتشبيهه الى حد ما بوضع المجتمعات المعاصرة التي
 تحكمها الانظمة الحزبية.

من صلح الامام الحسن عليه السلام.

في الكوفة نرى رجال الشيعة من ابرز الوجوه وأشهرها. وفي مكة والمدينة بل وفي المناطق النائية نرى أتباع أهل البيت مثل حلقات مترابطة يعرف بعضها ما يلم ببعض الآخر.

حين يستشهد بعد اعوام أحد رجال الشيعة وهو «حجر بن عدي» ترتفع أصوات الاعتراض في مناطق عديدة من البلاد الاسلامية رغم الارهاب المفروض على كل مكان، ويبلغ الحزن والاسى بشخصية معروفة في خراسان أن يموت كمدا بعد إعلان الاعتراض الغاصب^(١).

وبعد موت معاوية ترد على الامام الحسين عليه السلام آلاف الرسائل تدعوه أن يأتي الى الكوفة لقيادة الثورة. وبعد استشهاد الامام يلتحق عشرات الآلاف بمجموعة «التوابين»، أو ينخرطون في جيش المختار وابراهيم بن مالك ضد الحكم الاموي.

ومن حق الباحث في التاريخ الاسلامي أن يسأل عن العوامل الكامنة وراء شيوع هذا الفكر والتحرك الموالي لآل البيت عليه السلام هل يمكن أن يتم دون وجود نشاط مكثف محسوب منظم متحد في الخطة والهدف؟!

الجواب: لا طبعاً. فالاعلام الهائل الذي وجهته السلطة الاموية عن طريق مئات القضاة والولاة والخطباء لا يمكن احباطه وإفشاله دون إعلام

١ - مات الربيع بن زياد الحارثي غماً لمقتل حجر، وذكر لذلك ابن الاثير في الكامل : ٣: ١٩٥، وكان سبب موته سحق قتل حجر بن عدي... وذكر ذلك في الاستيعاب واسد الغابة والدرجات الرفيعة وغيرها. صلح الحسن عليه السلام : ٣٣٨.

مضاد مخطط مرسوم ينهض به تنظيم منسجم موحد غير مكشوف. وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذا الجهاز العلوي المنظم وتضاعفت سرعة عمله. حتى إن والي المدينة يكتب إلى معاوية ما مضمونه: «أما بعد فإن عمر بن عثمان (عين والي المدينة على الحسين عليه السلام) أخبرنا بأن رجلاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يترددون على الحسين بن علي وتدور بينهم احاديث حول رفع راية الترد والعصيان... فاكتبوا لنا ماذا ترون»^(١).

بعد واقعة كربلاء وشهادة الحسين عليه السلام تضاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق على أثر الصدمة النفسية التي أصيبوا بها في مقتل الحسين، حيث بوغتوا بهذه الجريمة التي سلبتهم قدرة الالتحاق بركب الحسين وأهل بيته في كربلاء.

وكان هذا التحرك مؤطراً بالالم والحسرة والاسف. يقول الطبري: فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدم الحسين فكان يجيبهم القوم بعد القوم والثغر بعد الثغر، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد بن معاوية^(٢).

وحقا ما تقوله مؤلفة جهاد الشيعة إذ تعلق على قول الطبري بالقول: وظهرت جماعة الشيعة بعد مقتل الحسين كجماعة منظمة، تربطها روابط سياسية وآراء دينية، لها اجتماعاتها وزعمائها ثم لها قواتها العسكرية،

١ - ثورة الحسين عليه السلام: ١١٨، نقلاً عن اعيان الشيعة والاخبار الطوال.

٢ - الطبري ٧: ٤٦، نقلاً عن د. سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة. ٢٨.

وكانت جماعة «التوايين» أول مظهر لذلك كله^(١).

ويبدو من دراسة أحداث التاريخ ورأي المؤرخين في تلك البرهة الزمنية أن الشيعة كانوا يتولون مسؤولية القيادة والتخطيط، أما القاعدة العريضة الساخطة على بني امية فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة، وكانت هذه القاعدة تنضم إلى كل حركة ذات صبغة شيعية.

من هنا فإن المتحريين ضد بني امية، وإن رفعوا شعارات شيعية، لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً بأنهم في عداد الشيعة أي في عداد الجهاز التنظيمي لائمة أهل البيت.

إنطلاقاً مما سبق أود التأكيد على أن اسم الشيعة بعد شهادة الامام الحسين عليه السلام أطلق فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالامام الحق تماماً كما كان الحال في زمن امير المؤمنين عليه السلام.

هذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الامام الحسن إلى تأسيس التنظيم الشيعي بأمر الامام، وهي التي نشطت في كسب الافراد إلى التنظيم ودفع أفراد أكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي إلى مستوى الانخراط في التنظيم، نحو التيار العام للحركة الشيعية.

والرواية التي اوردناها عن الامام الصادق عليه السلام في بداية هذا الحديث والتي تذكر أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة إنما تقصد أفراد هذه المجموعة الخاصة.. أي هؤلاء الذين كان لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية.

وعلى اثر النشاط المتستر الهادي الذي قام به الامام السجاد عليه السلام توسعت قاعدة هذه المجموعة، وإلى هذا يشير الامام الصادق في الرواية المذكورة: «ثم لحق الناس وكثروا». وسنرى أن عصر الامام السجاد والامام الباقر والامام الصادق عليه السلام شهد تحرك هذا الجمع تحركاً اثار الرعب والفرع في قلوب الحكام الظالمين، ودفع هؤلاء الحكام إلى ردود فعل قاسية.

وبعبارة موجزة فإن اسم الشيعة في القرنين الاول والثاني الهجريين وفي زمن الاثمة عليه السلام ما كان يُطلق على عامة محبي أهل البيت عليه السلام أو المؤمنين فقط بحقهم وبصدق دعوتهم من دون اشتراك في مسيرتهم الحركية. بل إن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي وهو عبارة عن الارتباط الفكري والعملي بالامام والاشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق إلى نصابه واقامة النظام العلوي الاسلامي. هذا الارتباط هو نفسه الذي يطلق عليه قاموس التشيع اسم «الولاية».

جماعة الشيعة كانت تطلق في الواقع على أعضاء حزب الامامة.. هذا الحزب كان يتحرك بقيادة الامام، وكان يتخذ من الاستتار والتقية خندقاً له مثل كل الاحزاب والتنظيمات المضطهدة التي تعيش في جو الارهاب. هذه خلاصة النظرة الواقعية لحياة الأئمة، وخاصة الامام الصادق عليه السلام. وكما ذكرنا من قبل لا يمكن أن يكون لمثل هذه المسألة دلائل صريحة، إذ لا يمكن أن نتوقع من بيت سرّي أن يحمل لافتة تقول: «هذا بيت سرّي»! وكذلك لا يمكن أن نطمئن إلى النتيجة دون قرائن حاسمة.

من هنا ينبغي أن نتتبع القرائن والشواهد والاشارات.
 من العبارات العميقة التي تلفت نظر الباحث المدقق في الروايات
 المرتبطة بحياة الائمة، أو في كلام مؤلفي القرون الاسلامية الاولى، عبارة
 «باب» و«وكيل» و«صاحب السر» وهي عبارات تطلق على بعض
 اصحاب الائمة. ابن شهر آشوب المحدث الشيعي الشهير مثلاً يقول في سيرة
 الامام السجاد عليه السلام: «وكان بابه يحيى بن ام الطويل» وفي سيرة الامام
 الباقر عليه السلام: «وكان بابه جابر بن يزيد الجعفي»، وفي ترجمة الامام الصادق عليه السلام
 يقول: «وكان بابه محمد بن سنان». وفي «رجال الكشي» ترد حول زرارة
 وبريد ومحمد بن مسلم وابي بصير عبارة: «مستودع سرّي». وفي كتب
 الحديث تروى عن الامام الصادق عليه السلام عبارة «وكيل» بشأن المعلى بن
 خنيس. وكل واحد من هذه التعبيرات، إن لم تكن صادرة عن الامام، فانها
 دون شك حصيلة دراسة موسعة في حياة الائمة نهض بها المؤلفون الشيعة
 القدامى، واختيار هذه التعبيرات على أي حال ينطلق من معالم بارزة في
 حياة أئمة اهل البيت عليه السلام.

ولو تأملنا في هذه التعبيرات لألفينا أن كل واحد منها يدل على وجود
 جهاز فعال مستتر وراء النشاط الظاهري للائمة.

مستودع السر

إذا لم يكن لأحد «سرّ» فليس له مستودع سر. فما هو هذا السر في حياة
 الائمة؟ ما هذا الذي لا يتحمله أصحاب الائمة عامة، بل ثمة نفر معدود له

لياقة وصلاحية تحمّله، وبذلك نال شرف اسم «مستودع السر»؟! ولقد راحت الذهنية المتأخرة البعيدة عن واقع الاحداث وتمحيصها تفسر هذا السر بانه «سر الامامة». كما راحت تفسر سرّ الامامة بأنه الاسرار الغيبية والقدرة على الخوارق والمعاجز.

أنا أؤمن بقدرة هذه الصفوة المقدسة من أهل البيت الذين اختارهم الله لمواصلة مهمة حمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله أن يحملوا مثل هذه القدرة ومثل هذه العلوم. كما أؤمن بأن تحليهم بهذه القوى والعلوم لا يتنافى أصلاً مع نظرة الاسلام الى الانسان والنواميس الطبيعية وسنن الكون. ولكن هذه القوى والعلوم ليست هي «سر الامام». فمثل هذه القوى والعلوم أوضح دليل على الامامة وعلى صدق دعوى الامام. لماذا يكتّم الامام هذه الامور ويوصي اصحابه بكتّانها في روايات كثيرة تضافرت حتى أصبحت الكتب الحديثية الشيعية تتضمن باباً يحمل عنوان: «باب الكتّان»؟^(١) لا بد أن يكون هذا السرّ مما لو شاع لشكل خطراً كبيراً على الامام وأصحابه، وهذا شيء غير الغيبيات والخوارق.

هل السرّ هو معارف أهل البيت؟ هل هو رؤية مدرسة أهل البيت للاسلام وفقهه وأحكامه؟ لا نذكر أن معارف مدرسة أهل البيت كانت تنشر في عصر الاضطهاد الاموي والعباسي وفق منهج الحكمة والتدبير لكي لا يخوض فيها كلّ من هبّ ودبّ. ولكن هذه المعارف لا يمكن أن تكون هي سرّ الامام. فمع كل ما أحاط بهذه المعارف من اختصاص كانت تدرس في

مئات الحوزات الفقهية والحديثية في عدد من كبريات مدن الصقع الاسلامي آنذاك. كان الشيعة يتناقلون هذه المعارف ويشرحونها ويتداولونها. بعبارة أخرى كانت هذه المعارف خاصة لا سرية.

واختصاصها يعني أن رواجها كان محدودا بالدائرة الشيعية، لكنها كانت تصل الى غير الشيعة أيضا في ظروف خاصة. لم تكن ابدا محدودة بأفراد معدودين من أصحاب الأئمة وخافية على غيرهم.

الحق أن الاسرار هي ما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالجهاز التنظيمي للإمام.. بالجهاز الذي يخوض معتركا سياسيا باتجاه هدف ثوري.. بالتكتيك الذي ينتهج الجهاز... بالعمليات التي ينفذها.. باسماء ومهام اعضاء الجهاز.. بمصادر التمويل.. بالاخبار والتسارير المتعلقة بالاحداث الهامة... هذه وأمثالها من الاسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها سوى القائد والكوادر المسؤولة. ربما تحين الظروف المناسبة عاجلا أم آجلا لاعلان هذه الاسرار وكشفها، ولكن قبل أن تحين تلك الظروف لا يمكن أن يطلع على هذه الاسرار سوى من يرتبط عمله مباشرة بها وهم «مستودع السر». وكل تسريب لهذه المعلومات الى أوساط الشيعة فانه يفتح ثغرة تسربها الى الاعداء. وهو خطأ كبير لا يغتفر. خطأ قد يؤدي الى انهدام الجهود والاعمال والمجموعة المنتظمة. ومن هنا نفهم ما يعنيه الإمام إذ يقول: «ليس الناصب لنا حرباً بأعظم مؤنة علينا من المذيع علينا سرنا. فمن اذاع سرنا الى غير اهله لم يفارق الدنيا حتى يعضه السلاح»^(١).

الباب والوكيل

في الارتباطات السرية بين الامام والشيعة قد يتطلب الامر ايصال بعض المعلومات الى الشيعة عن طريق «واسطة» وهذا تدبير معقول وطبيعي، العيون المتلصصة على كشف ارتباطات الامام عليه السلام تترصد التقاءاته بأتباعه في موسم الحج في مكة والمدينة حين تؤمها القوافل من أقاصي العالم. وقد يؤدي رصد هذه اللقاءات الى اكتشاف خيوط الجهاز المركزي لتنظيم الامام. لذلك نرى أن الامام كان يُبعد عنه بعض الافراد بلهجة لينة أحياناً ومعاتبة تارة أخرى، يقول لسفيان الثوري مثلاً: «أنت حل مطلوب وللسلطان علينا عيون فاخرج عنا غير مطرود»^(١).

ويترحم الامام على شخص صادفه في الطريق وأعرض بوجهه عنه، ويذم شخصاً آخر رآه في ظروف مشابهة فسلم عليه باحترام واجلال»^(٢). مثل هذه الظروف تستلزم وجود فرد يكون واسطة بين الامام وبين من يحتاج الى معلومات تصل اليه من الامام. وهذا الواسطة هو «الباب». ويجب أن يكون من أخلص أتباع الامام، وأقربهم اليه، وأغناهم بالمعلومات والخطط. يجب أن يكون مثل «نحلة» إننا عرفت الحشرات المضرة ما تحملهُ من عسل قَطَعْتها وأغارَت على شَهدِها^(٣). وليس صدفة أن نرى تعرض

١ - مناقب ابن شهر آشوب ٤: ٢٤٨.

٢ - الكافي ٢: ٢١٩.

٣ - هذا التعبير مقتبس من أحد نصوص الامام عليه السلام.

هؤلاء «الابواب» غالبا للمطاردة واقسى ألوان البطش والتنكيل.

إن يحيى بن أم الطويل «باب» الامام السجاد عليه السلام يُقتل بشكل شنيع^(١) وجابر بن يزيد الجعفي باب الامام الباقر عليه السلام يتظاهرون بالجنون ويشيع عنه ذلك فينجيه من القتل الذي صدر الامر به من الخليفة قبل أيام من اشتهار جنونه. محمد بن سنان، باب الامام الصادق عليه السلام، يتعرض لطرد ظاهري من الامام رغم أن الامام أبدى رضاه عنه في مواضع أخرى وأثنى عليه، وما ذلك إلا لتعرض محمد بن سنان لمثل هذه الاخطار. إعلان الامام براءته من راوٍ ومعروف مشهور حظي باعلان رضا الامام مرارا يعود على الاقوى الى تكتيك تنظيمي.

مثل هذا المصير يواجهه «الوكيل» أيضا، منسؤول جمع الأموال المرتبطة بالامام وتوزيعها يملك أيضا كثيرا من الاسرار وأقلها اسماء الدافعين والقابضين. وليست هذه المعلومات بالتي يستهين بها أعداء الامام. وأفضل دليل على ذلك مصير المعلى بن خنيس وكيل الامام الصادق في المدينة، وتعبيرات الامام القائمة على أساس التقية بشأن المفضل بن عمر وكيل الامام في الكوفة.

هذه العناوين الثلاثة (الباب، الوكيل، صاحب السر) التي نجد مصاديقها في وجوه بارزة من رجال الشيعة تلقي ظلالة على واقع الشيعة وارتباطهم بالامام والحركة التنظيمية الشيعية.

١ - قطعت رجله وهو حي ثم قتل. للتعرف على هذه الشخصية الكبيرة راجع: رجال الكشي وسائر كتب الرجال.

١٠٢ قيادة الإمام السجاد (عليه السلام)

يمكننا بهذه النظرة أن نفهم الشيعة بأنهم مجموعة من العناصر المنسجمة الهادفة النشطة المتمركزة حول محور مقدّس يشعّ بتعاليمه وأوامره على القاعدة، والقاعدة ترتبط به وتنقل اليه المعلومات وتضبط مشاعرها وتسيطر على عواطفها بتوصياته الحكيمة، وتلتزم التزاماً دينياً بأساليب العمل السري مثل حفظ الأسرار، وقلة الكلام، والابتعاد عن الأضواء والتعاون الجماعي والزهد الثوري.



